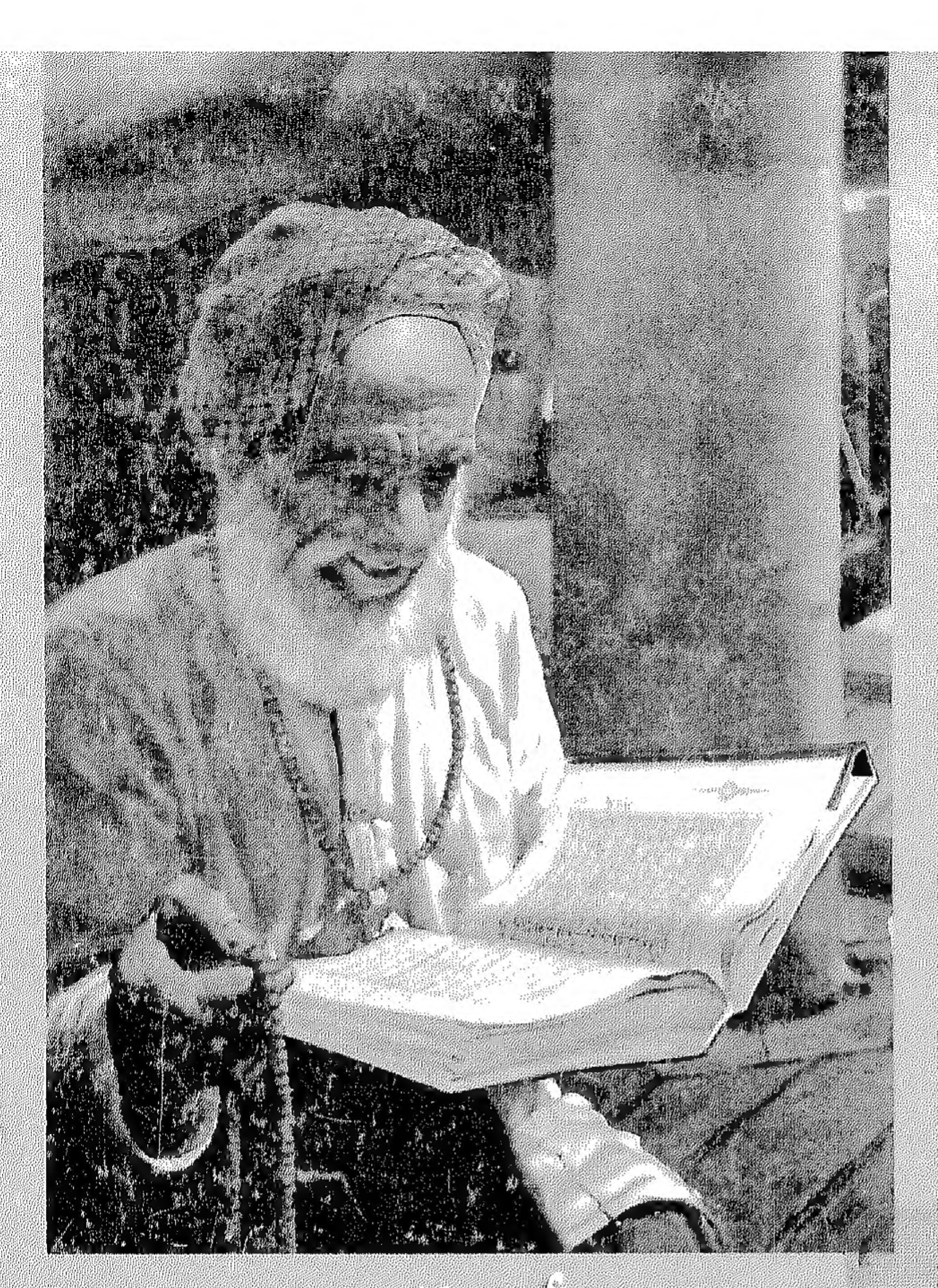


دستور أمة الإسلام

دراسة فى أصول الحكم وطبيعته وغايته عند المسلمين

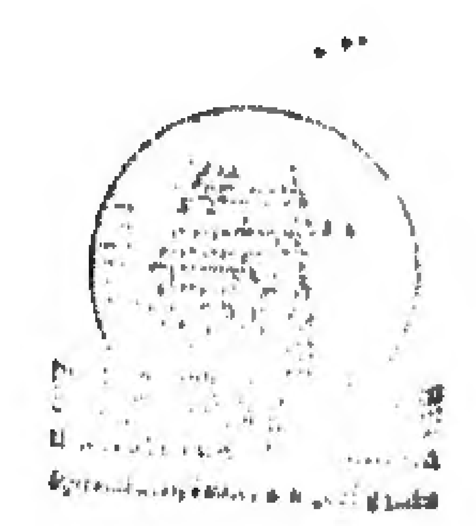
د. حسين مؤنس

الأعمال الدينية



الهيئة المصرية
العامة للكتاب


Bibliotheca Alexandrina
0110597



General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

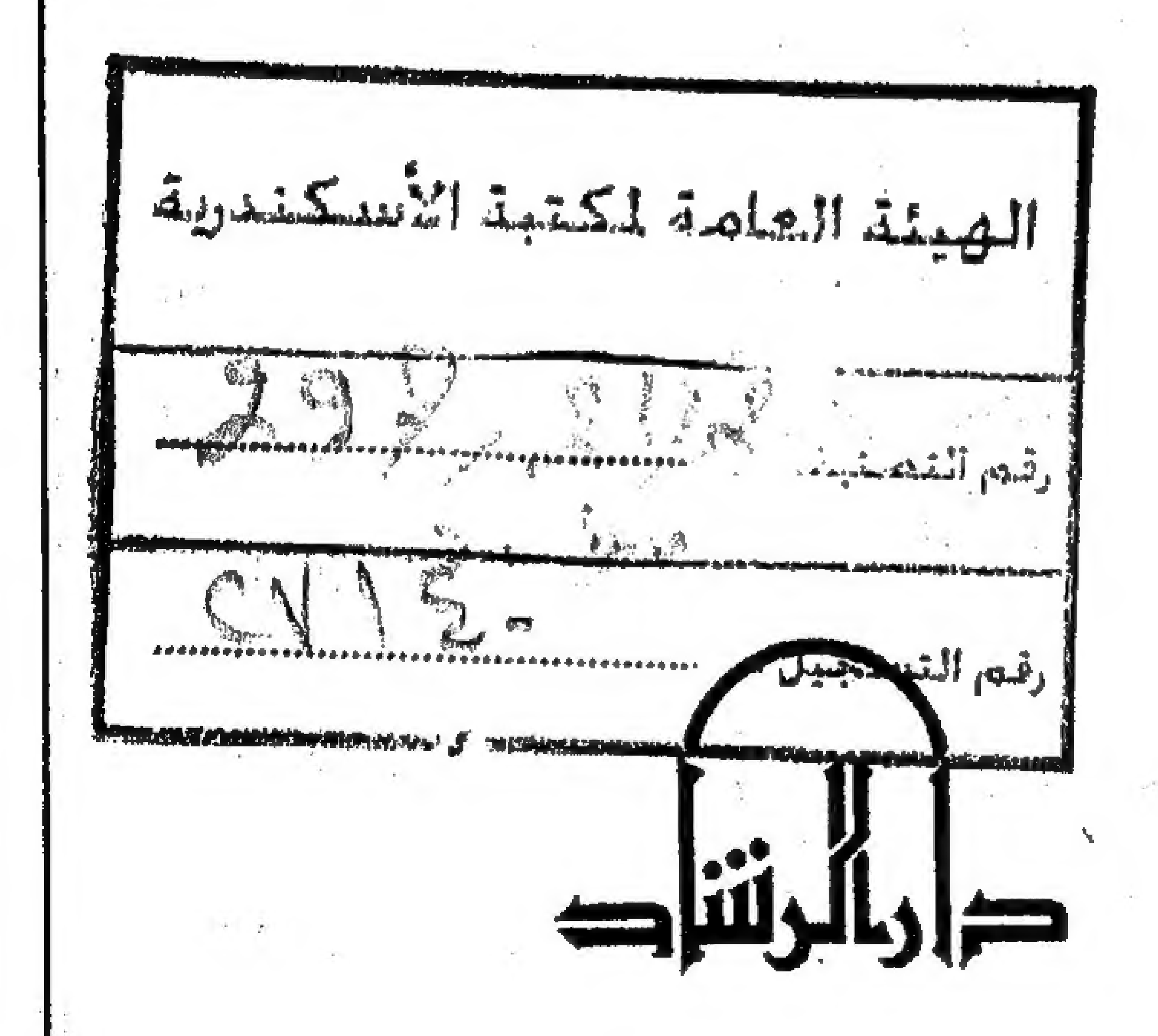
دستور أمة الإسلام

طبعـة خاصـة
تصدرها دار الرشــاد
ضمن مشروع مكتبة الأسرة

دستور أمة الإسلام

دراسة فى أصول الحكم وطبيعته وغايته عند المسلمين

د. حسين مؤنس





مهرجان القراءة للجميع ٩٨

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(أعمال دينية)

دستور أمة الاسلام

د. حسين مؤنس

الغلاف

الإشراف الفنى:

للفنان محمود الهندى

المشرف العام

د. سمير سرحان

الناشر : دار الرشاد

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب

على سبيل التقديم

تواصل مكتبة الأسرة ٩٨ رسالتها التنويرية وأهدافها النبيلة بربط الأجيال بتراثها الحضارى المتميز منذ فجر التاريخ وإتاحة الفرصة أمام القارئ للتواصل مع الثقافات الأخرى، لأن الكتاب مصدر الثقافة الخالد هو قلعتنا الحصينة وسلاحنا الماضى فى مواكبة عصر المعلومات والمعرفة.

د. سمير سرحان

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل

من ألطف مايدرسه الإنسان فى الإسلام دستوره ، **فإن دين** الإسلام دستور ، وهو دستور بسيط واضح إنسانى ، وكان **رسول الله** ﷺ شديد الحرص على شرح دستور الإسلام للناس بأسلوبه الواضح وبطريقته فى التصرف . ومن الجدير بالذكر أنه صلوات الله عليه كان هادئاً متمكناً من أعصابه . ومهما نقرأ فى سيرته لا تجده أبداً عصبياً أو غاضباً أو خارجاً عن هدوئه ، وكان الناس يخطئون فى التصرف فلا يغضب وإنما هو يكلم الناس فى هدوء . ومن أمثلة ذلك أنه انتدب واحداً من الصحابة لأخذ الصدقات من إحدى القبائل ، فعاد الرجل بعد عام وقال : هذا لكم ، وهذا لى . . يريد أن الناس أعطوه الصدقات (وهذه للمسلمين) وأعطوه إلى جانبها هدايا له ، فلم يقل له الرسول شيئاً ، وإنما صعد على المنبر وقال : مابال أحدكم أبعثه على الصدقات فيعود إلينا ويقول : هذا لكم وهذا لى . هلا بقى فى قبيلته ليرى إن كان الناس يعطونه شيئاً لنفسه ، إن كل المال لنا جماعة المسلمين ونحن نتقاسم هذا المال . والرجل عندما بلغه ذلك ذهب إلى الرسول وقال له : هذا كل المال يارسول الله ، وأنا ليس لى من

هذا المـال شىء ، وسلم المال للرسول ، والرسول أعطاه لأبى بكر وقال : هذا المال للمسلمين كلهـم ياأبا بكر ، ولم يزد الرسول على ذلك كلمة .

وأنا عندما أقرأ فى الإسلام أبحث دائمًا عن دستور ، أى قانونه الأخلاقى ، ومن المعروف أن الإسلام له عباداته وأخلاقياته ، فإن العبـادات : وهى الصلاة والزكاة والصيام والحج وكلها لله ، وبقية الإسلام أخلاق وهذه هى دستور الإسلام ، وإذا أنت احتجت إلى سنـة لدراسـة العبـادات فأنت تحتاج إلى عمرك كله لدراسة دستور الإسلام . فهو قاعدة الحياة وأصل الحياة الإسلامية أو هو من أجمل ما يـدرسه الإنسان ، وأنت مهما تقـرأ وتدرس فأنت لا تحيط بـدستور الإسلام كله ، ثم إنه مجال حر للفكر والدراسة والتجربة .

دكتور / حسين مؤنس

قـافلة خرجـت تقصـد الغـد
فضاعت فـى رمـال المـاضـى

قالوا : كان الناس ورقاً لا شوك فيه ، فصاروا شوكاً لا ورق فيه .. وقـالوا : تعامل الناس بالدين حتى ذهب الدين ، وبالحياء حتى ذهب الحياء ، وبالمروءة وقد صاروا إلى الرغبة والرهبة ، وأحْر بهما أن يذهبا .

كانت الأجيال الأولى من المسلمين على مثال من الالتزام بهدى الإسلام ومكارم أخلاقه ، ومن الفهم لروحه وغاياته على مستوى لا يصدق ، واقرأ هذه الرسالة التى كتبها أبو بكر لتقرأ على الناس عند استخلافه عمر بن الخطاب :

بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا ماعهد أبو بكر بن أبى قحافة فى آخر عهده بالدنيا خارجاً منها ، وعند أول عهـده بالآخـرة داخلاً فيها حيث يؤمن الكافر ، ويوقن المرتاب الفاجر ، ويصـدق الشـاك المكـذب : إنى استخلفت عليكم بعـدى عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا ، فإنى لم آل الله ورسوله ودينه ونفسى وإياكم خيراً فإن عدل فذاك ظنى به وعلمى فيه ، وإن بدل فلكل امرىء مااكتسب ، والخير أردت ومايعلم الغيب إلا الله ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

ثم أمر بالكتاب فختم .

واقرأ هذه الرسالة لعمر ، وقد رواها الجاحظ فى البيان والتبيين :

« كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبى وقاص ياسعد ، سعد بن أهيب ، إن الله إذا أحب عبداً حببه إلى خلقه ، فاعتبر منزلتك من الله بمنزلتك من الناس ، واعلم أن مالك عند الله مثل مالله عندك » ، واقرأ هذه الرسالة من عمر إلى قواده زمن اليرموك » ، قال سماك سمعت عياضاً الأشعرى قال : « شهدت اليرموك وعلينا خمسة أمراء ، أبو عبيدة بن الجراح ، ويزيد بن أبو سفيان ، وشرحبيل بن حسنة ، وخالد بن الوليد ، وعياض بن غنم ، قال : وقال عمر : إذا كان قتال فعليكم أبو عبيدة قال : فكتبنا إليه : إنه قد جاشر إلينا الموت . . واستمددناه ، فكتب إلينا : إنه قد جاء فى كتابكم تستمدوننى ، وإنى أدلكم على من هو أعز نصراً وأحضر جنداً ، الله عز وجل ، فاستنصرو فإن محمداً ﷺ قد نصر يوم بدر فى أقل من عدتكم فإذا أتاكم كتابى هذا فقاتلوهم ولا تراجعونى .

قال : فقاتلناهم فهزمناهم » .

ويحكى البلاذرى فى أنساب الأشراف أن عمر بن الخطاب دخل على أبى عبيدة بن الجراح فى دويرية كان قد اتخذها لنفسه بعد أن سلم أهل القدس على أمان عمر ، وأبو عبيدة إذ ذاك أميرهم فما وجد عنده إلا حصيراً ووساد وقطيفة يتغطى بها إذا نام ، ووجد عنده صحفة فيها زيت وملح ومعها كسرة خبز وجرة ماء فاستحيا عمر من أبى عبيدة وقال له : اتق الله فى نفسك ياأبا عبيدة فإن الله أحل لك أكثر من هذا ، وأنت أمير تنفعك الشارة ، فقال أبو عبيدة : ليس لى عند الله وعند المسلمين إلا مايظلنى ويسد جوعى ويروى ظمئى ، أما الشارة ياعمر فهى الإسلام .

فبكى عمر بكاء شديداً جداً حتى أقبل عليه أبو عبيدة يسأله أن يخفف عن نفسه ويرفق بها فقال : دعنى أبكى ياأبا عبيدة فإنما بكائى محبة لرسول الله الذى أخرج مثلك . . .

فهذه الأخبار كلها إسلام وإيمان . . وهؤلاء ناس كانوا يعيشون الإسلام ، لأنهم فهموه وتمثلوه حتى صار كما يقول أبو عبيدة شارتهم أى مظهرهم وجاههم ودليل قوتهم .

ولست أضرب هذه الأمثلة على سبيل الوعظ ، فلست بالواعظ ولا أصلح أن أكونه ، إنما أنا مؤرخ ولى من وراء هذه المثل أفكار تتعلق بتاريخ أمة الإسلام ومافعلت بنفسها أمة الإسلام .

* * *

وكانت الأجيال المتأخرة من المسلمين على مثال من البعد عن الإسلام وروحه والزهد فى الحق ومكارم الأخلاق على درجة لا تصدق

واقرأ الكلام التالى الذى كتبه ابن المقفع يؤيد السلطان ويخوّله الحق فى التصرف فى شئون الأمة كيف شاء . « إن الناس يقولون بل نطيع الأئمة فى كل أمورنا ولا نفتش عن طاعة الله ولا معصيته ، ولا يكون أحد منا عليهم حسيباً ، هم ولاة الأمر وأهل العلم ، ونحن الأتباع وعلينا الطاعة والتسليم ، قال ابن المقفع ولا أذهب هذا المذهب ، وإن كنت أقول : إن طاعة السلطان واجبة ولكن الشورى تنفع السلطان ، فصاحب الرأى يقول ماعنده مع النوقير التام للإمام لأن للإمام الطاعة التامة فى كل مايراه من صالح الرعية » ، وهذا كلام لم يعرفه الإسلام بل جاء الإسلام ليزيله .

واقرأ هذا الكلام من كتاب « التاج » الذى يعتبر من معالم تاريخ الفكر السياسى فى الإسلام وإن كنا لا نعلم مَنْ مؤلفه ، ولكننا نقطع بأنه ترجم من الفارسية بأمر خلفاء بنى العباس مابين سنتى ٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ/ ٨٤٧ ـ ٨٦١ م

أى فى عصر خلافتى المتوكل والمستعين من خلفاء بنى العباسى ، وهو عصر انتقل فيه السلطان من الخلفاء إلى الوزراء ومعظهم فرس من أمثال ابن الزيات وأبى جعفر الجرجانى وأبى الحسّن عبيد الله بن يحيى بن خاقان الخراسانى ممن لم يعرفوا بخلق أو دين أو قرب من روح الإسلام .

وهـذا الكتـاب غير الإسلامى الفكر والروح . نشر ـ برأى طه حسين . وترجم إلى الفـرنسية وصدّر من مطبوعات اليونسكو على أنه من روائع الفكر الإسلامى . فتأمل والله مبلغ الإساءة إلى الإسلام على يد أهل الإسلام .

ثم نلوم الآخرين ونحمل على من نسميهم أعداء الإسلام .

وبعد ذلك بنحو مائة سنة وفى حكم البويهيين وهم إيرانيون ديلم من أهل طَبرِسْتان جنوبى بحرقزوين وكانوا أبعد الناس عن الإسلام وروح الإسلام ، فى حكم هؤلاء يكتب أبو الحسن على الماوردى كتاب « الأحكام السلطانية » خدمة لسادته السلاطين لا للإسلام ، فهذا الكتاب الذى يحسب الناس أنه من خير ماكتب فى الحكم الإسلامى ليس فيه من الإحساس بالإسلام أو الإدراك لحقيقته ذرة واحـدة ، فهـو يضع السلطان فوق الإسلام ويجوز الغضب والاستبداد ، ويقـول إن أهل الرأى (وهم أولئك الوزراء وحواشيهم) إذا عقدوا بيعة إمام لا يجوز نقضها لمخلوق لأن الرعية والمراد بها هنا ـ وللأسف ـ أمة الإسلام ـ عليها بمـوجب هذه البيعـة الطاعة والنصر للإمام ماوسعتهم الطاعة ، ولا يحل لهم القيام عليه بحال ، فهو ولى الأمر وهو أعرف بمصالح البلاد والعباد وهو لا يرى بأساً فى أن يحجر على هذا الإمام وزير مستبد ، ويتصرف فى شئون الخلق كيف يشاء وعلى الناس الطاعة ، وهو يعلل ذلك بأن هذا الإمام يقوم بحفظ الدين على أصوله المستقرة وماأجمع عليه سلف الأمة وتنفيذ الأحكام بين المتشاجرين وقطع الخصام بين المتنازعين حتى تعم النصفة فلا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم وحماية البيضة والذّبّ عن الحريم ليتصرف الناس فى المعايش . . . إلى آخر هذا

الكـلام الذى هو تمسّح فى الإسلام ، فما كان أولئك المستبدون بالأمر ليقيموا ميزان عدل ولا شارة إسلام ، إنما هم أهل بغى وفساد ، وقد لعنهم أبو حيان التوحيدى وكشف حقيقة أمرهم فى كتابه « مثالب الوزيرين » ومن أقوال الماوردى الغريبة فى الأحكام السلطانية قوله : إنه إذا وقع الحجر على الخليفة من قبل أعوانه ممن استبد بتنفيذ الأمور من دونه فلا يمنع ذلك من إمامته شريطة أن تكون أفعال من استولى على أمور الإمامة جارية على أحكام الدين ومقتضى العمل .

وهذا كلام لا يقبله العقل لأن الإمام إذا كان قد تولى برضى الأمة فهو يحكم بسلطان الأمة فكيف يحجر عليه رجل لا ترضاه الأمة ويتصرف فى أمور الناس ويكون تصرفه مع ذلك جائزاً أو شرعياً ؟ فهل هذا رأى الإسلام أو قول الحق ، أو هو رأى أبى الحسن الماوردى نفسه ؟ لا عجب أن نجد هذا الماوردى الذى توفى فى ربيع الأول ٤٥٠/مايو ١٠٥٨ عن ست وثمانين سنة هجرية مكروهاً من أهل الفقه والعلم فى زمانه ، مطعوناً عليه فى أمانته وعلمه .

ولكن هذا الماوردى وكتابه « الأحكام السلطانية » يعتبران عندنا اليوم - وحتى على المستوى الجامعى - أصلين من أصول التشريع الإسلامى ، وفى كل الكتب عندنا يتحدث أساتذة محترمون بعضهم أزهريون عن جواز الحجر على الإمام وجواز مايسمى بإمارة الاستيلاء وإمارة التفويض وإمارة التنفيذ وما إلى ذلك مما هو بعيد كل البعد عن أى مفهوم إسلامى .

ويبلغ الأمـر فيما يتعلق بضياع أصـول الحكم ومفهـومـه وغـاياتـه عنـد المسلمين ، أن الإمام أبا حامد الغزالى نفسه وهو حجة الإسلام لا يهمه شخص من يحكم الأمة ولا خلقه أو عدالته شريطة أن يحفظ دار الإسلام من العدوان . وهو فى هذه الحالة لا يرى بأساً بولاية الظالم والجائر والفاسق مادامت له قدرة على حماية الحدود والسيطرة على الناس ، وربما التمسنا العذر للغزالى فى ذلك إذا عرفنا أنه كان فى المقام الأول رجلاً مسلماً مؤمناً يخاف على الإسلام ومصيره فى عصره

الذى يعيش فيه ، فقد عاش فيما بين سنتى ٤٥٠ و ٥٠٥/١٠٥٨ ـ ١١١٢ فى عصر اضطراب وفوضى وأخطار محيطة بالإسلام من داخل ومن خارج ، فقد كان موجوداً عندما بدأ العدوان الصليبى على بلاد الإسلام .

وفى هذا المعنى يقول الغزالى فى كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد (ط . بيروت ١٩٦٩ ص ٢١٧) : « ليست هذه مسامحة من الاختيار أى اختيار الإمام الصالح ـ ولكن الضرورات تبيح المحظورات فنحن نعرف أن تناول الميتة محظور ولكن الموت أشد منه ، فليت شعرى من لا يساعد على هذا ويقضى ببطلان الإمامة فى عصرنا لفوات شروطها . وهو عاجز عن الاستبدال بالتصدى لها ، بل هو فاقد للمتصف بشروطها فأى أحواله أحسن أن يقول : القضاة معزولون والولايات باطلة والأنكحة غير منعقدة وجميع تصرفات الولاة فى أقطار العالم غير نافذة ، وإنما الخلق كلهم مقدمون على الحرام . أو أن يقول : الإمامة منعقدة والتصرفات والولايات نافذة بحكم الحال والاضطرار . فهو بين ثلاثة أمور : إما أن يمنع الناس من الأنكحة والتصرفات المنوطة بالقضاة ، وهو مستحيل ومؤد إلى تعطيل المعايش كلها ، ويفضى إلى تشتيت الآراء ومهلك للجماهير والدهماء ، أو يقول : إنهم يقدمون على الأنكحة والتصرفات ، ولكنهم مقدمون على الحرام إلا أنه لا يحكم بفسقهم ومعصيتهم بضرورة الحال ، ومعلوم أن البعيد مع الأبعد قريب ، وأهون الشرين خير ، يجب على العاقل اختياره » .

وخلاصة هذا أن يبيح هذه الولايات الفاسدة ليتقى بذلك شراً أكبر وهو الفوضى وضياع أمر الإسلام ، ولكن ذلك لا يمنع من القول أن رأيه هذا إنما هو تبرير ، ولكنه ليس حكماً صالحاً يتفق مع روح الدين .

وقد استند التفكير السياسى للغزالى على التسليم بالواقع فى عصره دفعاً لما هو أسوأ ، لأن الأمر الذى كان يهمه هو استمرار الإسلام واستمرار الحكم

بشريعتـه ، ومن هنـا فهـو يفـرق بين الإمام ، وهو صاحب السلطة الشرعية بتفويض الأمة ، والسلطان وهو صاحب السلطة الفعلية بما له من قوة وسلطان (عسكرى) أو العلماء وهم الذين يتولون تنفيذ أحكام الشريعة وتطبيقها . وهذا التفكـير مقبـول فى الـظروف الخـطرة التى عاشت فيها أمة الإسلام فى عصر الغزالى . ولكنه غير مقبول كنظرية شرعية سليمة نابعة من الإسلام .

وفى هذا يقول الغزالى فى نفس الكتاب : « إن تولية الإمام لا تتم إلا من أحد ثلاثة : إما التنصيص من جهة النبى ﷺ ، وإما التنصيص من جهة إمام العصر بأن يعـين لولاية العهد شخصاً معيناً من أولاده أو سائر قريش ، وإما التفـويض من رجـل ذى شوكة يتقى وتفويضه متابعة للآخرين ومبادرتهم إلى المبـايعة ، وذلك قد يسلم فى بعض الأعصار لشخص واحد مرموق فى نفسه مرزوق بالمتـابعة مسئول عن الكافة ، ففى بيعته وتفويضه كفاية عن تفويض غيره ، لأن المقصود أن يجتمع شتات الآراء لشخص مطاع ، وقد صار الإمام بمبايعته لهذا المطاع مطاعاً .

وينتهى الأمر بتسليم أهل العلم بإمامة المستبد الغاصب مادام قوياً مرهوب الجانب قادراً على ضبط الأمور وتنفيذ أحكام الشريعة التى يصدرها القضاة وأهل الحل والعقد ، ويعبر عن هذا الرأى الفقيه محمد بن إبراهيم بن جماعة (٦٣٩ - ٧٣٣ هـ - ١٢٤١ - ١٣٣٢ م) وهـو من كبار الشيوخ وأهل العلم فى العصر المملوكى . وفى ذلـك يقـول : « فإذا خلا الـوقت من إمـام ، فتصـدى لها (للإمـامـة) من ليس من أهلهـا ، وقهـر الناس بشوكته وجنوده بغير بيعة أو اختـلاف انعقـدت بيعتـه ولـزمت طاعتـه ، لينتـظم شمـل المسلمين وتجتمع كلمتهم ، ولا يقدح فى ذلك كونه جاهلاً أو فاسقاً فى الأصح .

وإذا انعقدت الإمامة بالشوكة والغلبة لواحد ثم قام آخر فقهر الأول بشوكته وجنوده انعزل الأول وصار الثانى إماماً لما قدمناه من مصلحة المسلمين وجمع كلمتهم » .

وقد يقبل هذا الكلام على أنه حكم الضرورة ومادام الإمام الصالح المستوفى شروط الإمـامة غير موجود فلا بأس بالتسليم بولاية الغاصب الجاهل الفاسق مادام قوياً قادراً على ضبط الأمور ، فهذا فى رأسهم ـ خير من ضياع الإسلام نفسه أو تعطل أحكام الشرع .

ولكن يبقى بعد ذلك السؤال : هل هذا يتفق مع روح الإسلام ؟

وإذا نحن سلمنـا بولاية الغـاصب والقاتل والفاسق لمجرد استمرار تنفيذ أحكام الشرع فهل بهذا تتحقق رسالة الإسلام ؟

يقول الغزالى وابن جماعة وابن تيمية وغيرهم : إن ذلك هو حكم الضرورة والضرورة فى رأيهم أن الناس فسدوا وعم الظلم والجهل وأصبحت المسألة مسألة إنقـاذ اسم الإسـلام . ومعنى ذلـك أن المسلمـين عجـزوا عن تحقيق رسالة الإسلام ، لقد بعدنا جداً عن روح الإسلام وإقرأ الأمثلة التى بدأت بها هذا المقال لتدرك مدى التدهور فى الفكر السياسى عند المسلمين ثم اسأل نفسك : ولماذا هذا كله ؟ لماذا فسدت الأمور وغلبت الشهوات وساد الأراذل ، والمفروض أن الإسلام جاء ليضع حداً لتدهور أحوال الناس وفساد طبائعهم وغلبة الجهال والمستبدين على أمور العباد . . قبل أن أجيبك على هذا السؤال أقف لحظة عند الفكر السياسى لابن خلدون .

★ ★ ★

إن فكر ابن خلدون السياسى لا يفترق كثيراً عن فكر أولئك الذين عرضنا عليك آراءهم فى الإمامة والملك ، ولكنه أذكى منهم وأوسع علمًا وأدق حسًّا ، ومن هنا فهو مع تسليمه فى النهاية بما سلموا به يفرق بين الملك والإمام ، فالملك فى رأيه ضرورة يفرضها الاجتماع الإنسانى والإمامة نظام إسلامى هدفه إقامة حكم الإسلام . .

وفى هذا يقول وكلامه هنا من أقوى الأدلة على تميزه على غيره بالنظر السديد والفهم العميق ، قال : لما كانت حقيقة الملك أنه الاجتماع الضرورى للبشر ، ومقتضاه التغلب والقهر اللذان هما آثار الغضب والحيوانية كانت أحكام صاحبه فى الغالب جائرة عن الحق ، مجحفة بمن تحت يده من الخلق فى أحوال دنياهم لحمله إياهم فى الغالب على ماليس فى طوقهم من أغراضه وشهواته ، ويختلف ذلك باختلاف المقاصد من الخلف والسلف منهم فتعسر طاعته لذلك وتجىء العصبية المفضية إلى الهرج والقتل ، فوجب أن يرجع فى ذلك إلى قوانين سياسة مفروضة يسلم بها الكافة وينقادون إلى أحكامها . كما كان ذلك للفرس وغيرهم من الأمم .

فابن خلدون يقول هنا : إن الملك (بضم الميم) ضرورة يقتضيها الاجتماع الإنسانى ، وإن الملك بطبعه يميل إلى الاستبداد والجور ، لأن صاحبه يريد دائماً أن يسخر الناس لشهواته . ولهذا فلابد لدفع مضار الملك من وجود قانون أو تشريع سياسى يضبط حدود سلطة ولى الأمر وحقوق الناس ، وهذا هو المراد بالدستور ، أى قانون تنظيم ممارسة السلطان .

ثم يقول ابن خلدون : إن هذه « السياسة » ويراد بالسياسة هنا التشريع المنظم لممارسة الحكم لا غنى عنها قط . ويستشهد بقول الله تعالى فى سورة الأحزاب : ﴿ **سُنَّةَ الله فى الذين خَلَوْا من قبل** ﴾ ويقول : فإذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها كانت سياسة عقلية (أى قانوناً وضعياً) وإذا كانت مفروضة من الله بشارع يقررها ويشرعها كانت سياسة دينية (أى شرعاً أو شريعة) نافعة فى الحياة الدنيا والآخرة .

ثم يستنكر ابن خلدون الملك والغضب بدون ضابط أو قانون أو دستور ، لأنه يكون فى هذه الحالة قهراً واستبداداً وتسخيراً للناس لشهوات الحكم (وهو مارضيه وأقره الماوردى وابن جماعة وأضرابهما ، لأنهما أباحا للحاكم كل فعل ،

مادام يضبط الأمن ويمكن القضاة من ممارسة القضاء وتنفيذ الأحكام .

وهو ينكر القانون الوضعي المنظم لشئون الحكم المبين لحدود سلطة الحاكم وحق المحكوم ، ويقول إنه مذموم ، لأنه نظر بغير نور الله ﴿ **وَمَن لَّم يَجعَلِ الله لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ من نُّور** ﴾ (سورة النور آية ٤٠) . . . وأحكام السلاسة إنما تطلع على مصالح الدنيا فقط ﴿ **يَعْلَمونَ ظَاهِراً مِّنَ الحَيَاةِ الدُّنيَا** ﴾ (سورة الروم آية ٧) ومقصود الشارع بالناس صلاح آخرتهم ، وكان هذا الحكم لأهل الشريعة ، وهم الأنبياء ، ومن قام فيه مقامهم وهم الخلفاء .

وهكذا يصل ابن خلدون إلى أن الخلافة هى أصلح صور الحكم : « لأن الملك الطبيعى هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة ، والسياسى هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلى فى جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار ، والخلافة هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليهما ، إذْ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا » .

ومن هنا فصاعداً يتفق ابن خلدون مع بقية الفقهاء فى وجوب الخلافة ، وهى عنده فى النهاية ملك دينى وظيفته تنفيذ أحكام الشرع ، وابن خلدون فقيه ، والفقهاء هم الذين ينفذون أحكام الشريعة ، ومعنى هذا - فى النهاية - أن الخلافة كلها فى خدمة الفقهاء ، وهذا هو لباب الفكر السياسى للفقهاء جميعاً ، فمادام الحاكم يؤيدهم ويعطيهم درجاتهم ومراتبهم فهو عندهم حاكم مقبول وطاعته واجبة حتى لو كان فاسقاً قاتلاً سفاكاً كما رأينا .

ولكن هل هو لباب التنظيم السياسى النابع من الإسلام ؟ بعبارة أخرى هل هذا الفهم للحكم يتفق مع فهم أبى بكر وعمر وأبى عبيدة له ؟ . . . ذلك

هو السؤال الذى أحب أن أضعه بعد أن مررت هذا المرور السريع بتطور الفكر السياسى عند من تعرضوا للكلام فى نظم الحكم من أهل الرأى من المسلمين .

فهم يرون أن الخلافة ملك ، ولكنه ملك دينى شرعى ، فهل هذا المفهوم يتفق مع طبيعة الإسلام كما نجدها فى القرآن الكريم وفى سنة الرسول وتفكير صحابته الأولين ؟ .

واضح أن « الخلافة ـ الملك » ليست نابعة من الإسلام ، فلم يكن أبو بكر أو عمر خليفتين قط ، إنما كانا مواصلين لسنة رسول الله ﷺ فى قيادة أمة الإسلام وتوجيه أمورها . لهذا اكتفى أبو عبيدة من السلطان بروح الإسلام وهى الزهد فى الدنيا مع عدم التفريط فى صلاح أمرها ، فقد كان رسول الله ﷺ وصحابته يهدون الناس بالقرآن والسنة والأسوة الحسنة ومكارم الأخلاق والعدل والمساواة والأخوة .

أريد أن أقول : إن رسالة الإسلام لم تكن قط إقامة ملك إسلامى ، بل إقامة نظام جديد سياسى اجتماعى ، يقوم على الترابط والتآخى والإيثار واستبعاد سيطرة الإنسان على الإنسان ، واستبدال سلطة الملك بسلطة الضمير ، والضمير الحى الصاحى هو الذى يوجه الإنسان فى كل تصرفاته ، وهو الذى ينظم المجتمع ، وهو الذى يضمن قيام الأمة الفاضلة التى يحكمها ضميرها الإسلامى ، ولا يكون الخليفة فى هذه الحالة إلا رمزاً للعدل وضماناً للأخلاق .

لهذا أنشأ رسول الله ﷺ أمة ، أى جماعة ترجع إلى أم واحدة ، فهم إخوة ولم يقم رسول الله دولة ، لأن الدولة تحمل معنى السلطان والقوة والغلبة ، وهذه كلها لله وحده ، أما الذى لنا فهو أن نتآخى فى الله ويرعى بعضنا بعضاً حباً فى الله . وفى القرآن الكريم آيات تقول : **﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ . أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ**

كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوٓءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوٓا أَهۡوَآءَهُم ﴾ (سورة محمد الآيتان ١٣ - و١٤) ، والقرية التى هى أشد قوة من قريتك التى أخرجت « رمز على كل النظم السياسية السابقة على الإسلام ممن زين لهم سوء عملهم واتبعوا أهواءهم .

والإسلام جاء لكى تقوم عليه قرى ، أى جماعات . وأمم تختلف عن قرى الجاهلية الأولى جميعاً . ورسول الله ﷺ لو كان أراد له أن يكون نبياً ملكاً عادلاً لكان ،فمن أنبياء الله قبل محمد من كانوا ملوكاً عادلين .

ولكن الله أرسل محمداً ليكون بالضبط كما قال سبحانه ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ، وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذۡنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً ، وَبَشِّرِ الۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللهِ فَضۡلاً كَبِيراً** ﴾ (سورة الأحزاب الآيات ٤٥ - ٤٧) . وهذا السراج المنير الذى هو بشرى للمؤمنين هو الطريق الإسلامى فى التنظيم السياسى والاجتماعى ، وهو الذى يضمن للمسلمين الفضل الكبير من الله .


لقد أحسن بذلك أبو بكر وأبو عبيدة ومن فى طبقتهم ومن تبعهم بإحسان ففتحوا أبواب الخير والسعادة لأمم بعد أمم .

وهذا السراج المنير هو الذى لم يره معاوية عندما جعل خلافة رسول الله ﷺ ملكاً مثل ملك « القرية » التى أخرجت الرسول ﷺ .

وهذا السراج المنير هو الذى لم يره أبو عبد الله السفاح وأبو جعفر المنصور عندما جعلا الإمامة إرثا عن رسول الله ﷺ . وهل هناك أبعد عن روح الإسلام من قول أبى عبد الله السفاح فى أول خطبة له على منبر الكوفة : « وزعمت السبئية الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا » ؟ فهل كان المثال النبوى والسراج المنير سياسة وخلافة ؟ وأسوأ من ذلك قول عمه داود بن على

عندما رقى المنبر ليكمل خطاب ابن أخيه : « وأحيا شرفنا وعزنا ورد علينا حقنا وإرثنا . . أى أن الإمامة إرث مع أن رسول الله ﷺ قال : « نحن الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة ؟ ، هنا نضع أيدينا على أولى خطوات ضياع قافلة الغد فى رمال الماضى .

وهذا هو الذى نريد أن ندرسه لنعرف حقيقة ماحدث ، وأين ذهب النور الذى أرسله الله مع محمد ﷺ ، فقد قال الله تعالى فى سورة النور ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ نوراً فما له مِن نُّورٍ ﴾ (الآية : ٤٠) . فما هو هذا النور ياترى ؟.



البداية عهد وميثاق

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ أَمَنُوا هَل أَدُلُّكُم عَلَىٰ تجَارةٍ تُنجيكُم مِّن عَذابٍ أليم تُؤمنونَ بالله وَرَسوله ، وتُجَاهدُونَ فى سَبيل الله بأَموَالكُم وأَنفُسكُم ، ذَلكُم خَيرٌ لَّكُم إِنْ كُنْتم تَعلَمونَ ، يَغفر لَكُم ذُنُوبكُم وَيُدخلكُم جَنَّات تَجرى من تَحتِها الأَنهارُ .. وَمَسَاكنَ طَيِّبَة فى جَنَّات عَدن ، ذَلك الفَوزُ العَظيمُ ، وَأُخرىٰ تُحبُّونَها نَصرٌ مِّنَ الله وَفَتحٌ قَرِيبٌ ، وَبَشِّر المُؤمِنِينَ ﴾ .

(سورة الصف الآيات : ١٠ ـ ١٣)

من القواعد التى جرى عليها رواد طرق التجارة وأدلاء القوافل أن الرائد أو الدليل إذا أحس أنه ضل طريقه وخاف الهلكة ، فعليه أن يعود بقافلته إلى نقطة البداية ليبدأ السير من جديد ، فإذا لم يفعل هذا ضاع وأضاع من معه ، وهذا هو ماسنفعله الآن .

فقد رأينا أن قافلة الأمة ضلت الطريق . واعتسفت سكة بعيدة عن سكة الإسلام ، وانتهت ـ تبعاً لذلك ـ إلى غاية لم يقصد إليها الإسلام . فالإسلام صراط أو طريق مستقيم يؤدى رأساً إلى مجتمع العدل والأمن والأمان والرخاء ، وكل ماتضعه عادة تحت عبارة « سعادة البشر » ، فإذا لم تصل الأمة إلى هذه الغاية فمعنى هذا أنها خرجت عن هذا الطريق ، فوصلت إلى غاية غير تلك الغاية .

فى موضوع خطير كهذا لا يجوز أن نرد الانتكاس الخطير الذى أوجزنا وصفه آنفاً إلى « نسيان الأمة دينها وانصرافها عن عباداتها من صلاة وصوم وزكاة » . فهذا كلام وعاظ مساجد يبيعون للناس كلاماً على قدر الرواتب التى يتقاضونها .

فليس صحيحاً أن الناس فى عصرنا هذا ، أو حتى فى عصور الظلام الماضية كانوا أبعد عن الدين وأقل حرصاً عليه مما يسمونه « السلف الصالح » فليس هناك سلف صالح وخلف طالح ، إنما هى أجيال من البشر يتوالى بعضها فى أثر بعض ، وفى كل جيل صالح وطالح ، وفى كل جيل ناس أهل دين وتقى ومكارم أخلاق ، وناس أهل فساد وإفساد وأهل فجور وعدوان ، وبين هذين الطرفين عرفنا اليوم ـ والأمس وقبل الأمس ـ جميع ألوان الطيف من فوق البنفسجى إلى تحت الأحمر . . وهناك دائماً طوائف تعتدى على الدين وتقارف الإثم جرأة على الله سبحانه أو طمعاً فى عفوه وسبحانه غفور رءوف بعباده وهو غافر الذنب وقابل التوب .

* * *

وهذا حق حتى فى أيام الرسول صلوات الله عليه . وأمامنا سورة « براءة » وهى أيضاً سورة التوبة ـ وهى التاسعة فى ترتيب المصحف ولكنها فى الحقيقة من أواخر ماانزل على رسول الله ﷺ من سور القرآن ، بل الغالب أنها آخر ماأنزل فقد نزلت على أثر غزوة تبوك ، وتبوك بدأت فى أواخر رجب عام ٩ للهجرة وانتهت أوائل رمضان (أكتوبر ـ ديسمبر ٦٣٠ م) ولم تكن على الحقيقة غزوة بل محنة وامتحاناً للأمة ، ولهذا تسمى غزوة العُسْرَة والعسرة نار يصهر معادن الناس فيتبين المعدن من الخبث ، ثم جاءت سورة براءة بنتيجة الامتحان فبدأت آياتها

تنزل على الرسول عقب العودة من الغزاة أى بعد الامتحان ، وظل المسلمون يترقبون نزول آياتها كما يترقب الطلاب نتيجة الامتحان وقلوبهم وجلة أشد الوجل وكل منهم يخشى أن تنزل آيات تكشف نفسه وماكان يخفيه عن الناس ، ولهذا قال حذيفة : إنكم تسمونها سورة التوبة إنما هى سورة العذاب . . وتسمى أيضاً البـاحثة والفاحصة والفاضحة والمتكلة ، لأنها كانت على الحقيقة أشعة سينية نفـذت فى كيان مجتمـع المـدينة أواخر أيام الرسول صلوات الله عليه وكشفت حقيقته كاملة .

ولهذا فهى ـ بالنسبة لنا معاشر المؤرخين ـ سورة حاسمة ، فقد نزلت بعد فتح مكة وكان عامة المسلمين يرون أن فتح مكة هو غاية الإسلام القصوى وباع بعض المسلمين سلاحه وقال : قد انقطع الجهاد فجاءت هذه السورة تقول : لا ياأمـة الإسـلام لم ينقـطع الجهـاد . . بل بدأ جهاد النفس أولاً لإصلاحها وإعادتها إلى جادة الإسلام وإلى طريقه وصراطه ، وجهاد الناس ومواصلة الفتوح حتى يكون الدين كله لله .

وقـد قرأت هذه السـورة مرة بعـد أخرى ، وقرأت كل ماقيل فيها وعنها وأنشأت عليها دراسة أرجو أن يعيننى الله فتنشر على الناس ، ويذهب معظم المفسرين إلى أنها هتكت أسرار المنافقين فحسب ، ولكن الحقيقة أنهاكشفت عن حال أمة الإسلام كلها فى نهاية المرحلة الأولى من مراحل بنائها : مرحلة الإنشاء والتكوين وبناء الأساس ، ليعرف المسلمون حقيقة أمرهم ويصححوا مسارهم قبل أن يدخلوا فى المرحلة الثانية ، مرحلة نشر الدعوة خارج جزيرة العرب ، ولهذا يروى الواقدى فى مغازيه أن رسول الله ﷺ عندما وصل تبوك أخذ حجراً ووضعه على حدود الجزيرة وقال : هذا يمن وأشار إلى الجنوب ، وهذا شام وأشار

إلى الشمال ، ومعنى هذا : ذلك هو ماتبينوه إلى الآن ، وذاك ماعليكم الآن أن تفعلوه .

واقرا معى على سبيل المثال هذه الآيات من براءة : ﴿ **وَمِنهُم مَّن عَاهَدَ الله لَئِن آتـانـا من فَضله لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكونَنَّ منَ الصَّالحينَ . فَلَمَّا آتاهُم مِّن فَضله بَخلُواْ به وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعرضُونَ . فَأَعْقَبهُمْ نفَاقاً فى قُلوبهم إلَى يَوم يَلقَونَهُ بمَا أَخلَفُواْ الله مَاوَعدوهُ وَبمَا كَانوا يَكذبُونَ . أَلَم يَعلَمُواْ أَنَّ الله يَعلَمُ سرَّهُمْ وَنَجوَاهُم وَأَنَّ الله عَلَّامُ الغُيُوب** ﴾ . (التوبة الآيات : ٧٥ - ٧٩) .

فهؤلاء قوم من المؤمنين الذين عاهدوا الله على الصلاح والتقوى والإنفاق مما يرزقهم الله فى سبيل الله فلما آتاهم الله ماوعدوا نقضوا وعدهم وبخلوا بمالهم غافلين عن أن الله سبحانه يعلم سرهم ونجواهم .

بل من أولئك المؤمنين من بلغ بهم الجحود أن ينالوا من الرسول بألسنتهم وفيهم تقول « براءة » :

﴿ **وَمنهُمُ الَّذينَ يُؤذُونَ النَّبىَّ وَيَقولونَ هُو أُذُنٌ قل أُذُنُ خَيرٍ لَّكُم يُؤمنُ بالله وَيُؤمنُ للمؤمنينَ وَرَحمَةٌ لِّلَّذينَ آمَنُواْ منكُم وَالَّذين يُؤذونَ رَسُولَ الله لَهُم عَذابٌ أَليمٌ ، يَحلفُونَ بالله لَكُم ليُرضُوكُم وَالله وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أن يرضُوهُ إن كَانُوْا مُؤمنينَ** ﴾ . (التوبة الآيتان : ٦١ - ٦٢) .

بل كان من أولئك الناس قوم كانوا يخوضون ويلعبون : ﴿ **وَلَئن سَألتَهُم لَيَقُولُنَّ إنَّمَا كُنَّا نَخوضُ وَنَلعَبُ قُل أَبالله وَءَآياته وَرَسُوله كُنتُم تَستَهزئُونَ لَا تَعتَذرُواْ قد كَفَرتُم بَعدَ إيمانكُم إن نَّعفُ عَن طَآئفَة مِّنكُم نُعَذِّب طَآئفَة بأنَّهُم كَانُواْ مُجرمينَ** ﴾ . (التوبة الآيتان : ٦٥ - ٦٦) .

وهذا كله كان فى حياة الرسول صلوات الله عليه .

نقول هذا لكيلا نجرى فى طريق أولئك الذين يصورون الأجيال السابقة على أنها كانت كلها صالحة يسير أهلها على الجادة لا يكادون يقعون فى خطأ فهذا - مرة أخرى - هو أسلوب الوعاظ ومن جرى مجراهم من أهل العلم فى الأجيال السالفة ممن حولوا الدين والكلام فى الدين إلى معلبات بل إلى معتقات والعلم لا يصلح أمره مع التعليب أو التعتيق لأنه لابد أن يكون جديداً دائمًا حياً أبداً نابعاً من الحياة وصاباً فيها .

والذى أريد أن أقوله هو أننا ينبغى أن نتحرر من تلك المأثورات التى توقف الذهن وتشل حركته وتجهد فى ربط الفكر بالأمس فيظل نظر صاحب العلم ناظراً إلى الخلف مع أن العلم فى صميمه كشف للمجهول ونظر دائم إلى الأمام . .

ومادمنا قد عدنا بالقافلة إلى أول الطريق لنسير من جديد فلنكن صادقين مع أنفسنا ومع من نكتب لهم لكى نفيد ويفيدوا وتتحول علوم الدين من علوم الماضى إلى علوم اليوم والغد وبعد الغد . .

وحسبنا إلى الآن خداع النفس وتزوير الماضى حسباناً منا أن ذلك يصلح الحاضر والمستقبل مع أننا نعلم علم يقين أنه لا يصلح مع التزوير شىء . .

وتلك هى عبرة سورة « براءة » . . . فقد كان الدين جديداً على الناس إذ ذاك وكذلك كانت غاياته فمضى الكثيرون منهم على سنن ماكانوا عليه حاسبين أن رسالة الإسلام تمت بفتح مكة وأنه لا تثريب عليهم أن يفعلوا مايشاءون ، وأن الأمة تستطيع المسير وفيها منافقون وكذابون وضعاف ومستهزئون فأتت السورة وكأنها سوط عذاب ينبه الغافل ويوقظ الجاهل وينذر السادر فى غيه لتصحيح المسيرة ورد المسلمين إلى جادة الإسلام وصراطه المستقيم ، والإسلام هو دين الله القيم أى دينه القائم إلى آخر الزمان ، وأمة الإسلام هى حاملة

رسالته فينبغى أن تكون متيقظة لنفسها أبداً ، وإذا كانت سورة « براءة » قد نفعت أمة الإسلام أيام الرسول فهى تنفعها فى كل عصر ومكان والناس هم الناس فى كل عصر فيهم الصالح وغير الصالح . . . لا يختلف فى ذلك منهم جيل عن جيل . . .

ولقد انتفعت أمة الإسلام من سورة « براءة » فاستقام أمرها وصلح أمر الكثيرين عليها ، ولكن كان لابد من زمان طويل حتى تستقيم البقية وعندما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى زلزلت جماعة الإسلام زلزالاً شديداً لولا أن عصمها الله بنفر ممن وعت قلوبهم الإسلام وعياً تاماً فاستطاعت أن تحفظ الأمة من الضياع ومن أكبر الأدلة على ذلك خبر رواه أحمد بن حنبل عن أنس بن مالك وأورده الحافظ بن كثير فى تفسيره وأبو بكر بن العربى فى « العواصم من القواصم » قال أنس : « لما كان اليوم الذى قدم فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شىء ، فلما كان اليوم الذى مات فيه أظلم منها كل شىء قال ومانفضنا عن رسول الله الأيدى حتى أنكرنا قلوبنا » قال أبو بكر بن العربى فى « العواصم من القواصم » وهكذا رواه الترمذى : وابن ماجة وقال الترمذى هذا حديث صحيح غريب وقال ابن كثير وإسناده صحيح على شرط الصحيحين . . .

وإذن فلم يكن هناك زمان من تاريخنا الإسلامى كان كل الناس جميعاً فيه ملائكة أطهاراً ، وهذه سورة « براءة » تبين ذلك بأجلى بيان ، وعندى من التفاصيل وأقوال المؤرخين كثير جداً ولكننى التقيت هنا بكلام الله سبحانه لأنه قاطع مانع ولا يمارى فيه أحد . . .

لكن ماالذى نجا بأمة الإسلام وعصمها وردها إلى الجادة ؟ . . . الذى نجا بأمة الإسلام أن أولى الإيمان والعزم فى عصر النبى ﷺ كانوا أضعاف أهل الضعف والنفاق والشك والريبة ، وكان إيمان الواحد منهم مع ذلك يهز الجبال وهم الذين وقفوا كالأطواد وعصموا الأمة من الضياع بإيمانهم واتحادهم وبما قبسوا

من سنة الرسول فقهروا أعداء الدين ، وقد ذكر الله سبحانه فى سورة « براءة » نفسها أولئك المؤمنين الصادقين فى قوله :

﴿ وَالمـؤمنـونَ وَالمُؤمنَاتُ بَعضُهُم أوليَآء بَعض ، يَأمُرونَ بالمعَروف وَيَنهَونَ عَنِ المنكَر ، وَيُقيمونَ الصَّلاةَ وَيُؤتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطيعُونَ الله وَرَسُولَه أولَئـكَ سَيَرحَمُهُمُ الله . إنَ الله عَزيزٌ حَكيمٌ . وَعَدَ الله المؤمنينَ وَالمؤمنَات جَنَّات تَجرى من تَحتها الأنهَارُ خَالدينَ فيهَا وَمَسَاكنَ طَيبة فى جَنَّات عَدن وَرضوانٌ مّنَ الله أكبَرُ .. ذَلكَ هُوَ الفَوزُ العَظيم ﴾ .

(الآيتان : ٧١ - ٧٢)

وتـزيد السـورة ذلك بياناً فتقول فى الآية ٨٨ : **﴿ لكَنِ الرَّسولُ وَالَّذين آمَنواْ مَعَهُ جَاهَدُواْ بأموَالهم وَانفُسهم وَأُوْلَئك لَهُمُ الخَيراتُ وَاُوْلَئك هُمُ المفلحُونَ ﴾** .

وضع ماشئت من الخطوط تحت .. لكن الرسول والذين معه . . الآية .

لأن هؤلاء هم الذين أنقذوا الإسلام .

وقد ذكر الله سبحانه هؤلاء المؤمنين الصادقين فى الآية الأخيرة من سورة الفتح :

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسولُ الله وَالَّذينَ مَعَهُ اشدَّآءُ عَلَى الكُفَّار رُحَمَاءُ بَينَهُم تَرَاهُم رُكَّعاً سُجَّداً يَبتَغُونَ فَضلاً مّنَ الله وَرضوَاناً ﴾ . . فلم يكن كل من عاصر رسول الله ﷺ معه على النحو الذى تصفه الآية . وليس كل من صحب الرسول بصحابى ، فقد صحبه ناس كثيرون دون أن يكونوا « معه » ودون أن يكونوا أشداء على الكفار رحماء بينهم .

هؤلاء الذين عصموا الإسلام هم الذين زادنا الله بهم تعريفاً فى قوله فى سورة الأحزاب : ﴿ **مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَاعَاهَدُواْ اللهَ عَلَيهِ فَمِنهُم مَّن قَضَى نَحبَهُ وَمِنهُم مَّن يَنتَظِرُ ، وَمَابَدَّلُواْ تَبدِيلاً** ﴾ . (الأحزاب : الآية ٢٣) .

وسنعرف بعد قليل من هم أولئك الذين عاهدوا الله وصدقوا ماعاهدوا الله عليه ، وواحد من هؤلاء لم يكتف بأن يكون صادقاً ، بل كان صديقاً ، وهو أبو بكر الذى أنقذ هذه الأمة بإيمانه وصدقه فى الوفاء بالعهد وفهمه التام للإسلام فقد وقف وحده عندما ارتدت العرب . حتى عمر عجب من تشدد أبى بكر فى موضوع الزكاة وقال لأبى بكر « علام تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ : « **أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها** » .فقال أبو بكر كلمته المشهورة : « والله لو منعونى عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله لأقاتلنهم على منعها . إن الزكاة حق المال . والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة .

ذلك أن أبا بكر بصدق إيمانه وبما قبس من شمائل الرسول أدرك أن الإيمان كتلة واحدة . فإذا نحن فرطنا فى جزء اليوم فسنفرط فى جزء آخر غداً وجزء ثالث بعد غد ، وهكذا إلى أن ينفرط العقد كله ويضيع الإسلام كله .

وقد فهم أبو بكر موضوع توقف الكثيرين من الأعراب على أنه نقض لعهد الأمة ، لأن الأمة قامت كما سنرى على عقد وعهد . ومادامو قد نقضوا جانباً من العهد فقد انتقض العهد كله ، وأصبحوا مرتدين عن الإسلام ، ومادامو قد ارتدوا فلابد أن تعيدهم الأمة إلى رحابها بالقوة ، وقد نجح أبو بكر فأعاد المرتدين إلى رحاب الأمة بل فعل أكثر من ذلك : لقد أرسل هؤلاء المرتدين الذين عادوا إلى الإسلام ليفتحوا الدنيا باسم الإسلام ، وساروا وفتحوا .

لأن أبـا بكـر ومن « معه » كانوا على بينة من أمر الإسلام ومايصلح أمة الإسـلام ، فأمـة الإسـلام قامت على عهد وعقد ، ولا تزال هذه الأمة بخير ماتمسكت بذلك العهد .

فما هو هذا العهد ؟ .

لنرجع إلى الوراء قليلاً لنعرف كيف قامت أمة الإسلام .

* * *

منذ تلقى الرسول ﷺ أوليات آيات القرآن واستوثق من أنه نبى مرسل أدرك أنه لابد لهذا الدين من أمة تتولى أمره ، فقد أمره الله فى الآية ٦٧ من سورة المائدة بإبـلاغ الرسالة وقال : ﴿ **يَآأَيها الرَّسولُ بَلِّغ مَآأُنزِلَ إلَيكَ مِن رَّبِّكَ وَإن لَّم تَفعَل فَمَا بَلَّغتَ رِسَالَتَهُ وَالله يَعصِمُكَ مِنَ النَّاسِ** ﴾ .

وفى الآية ٩٩ من نفس السورة نقرأ : ﴿ **مَّاعَلَى الرَّسُولِ إلَّا البَلاغُ وَالله يَعلَمُ مَاتُبدُونَ وَمَاتَكتُمونَ** ﴾ .

وقد أدرك الرسول أن البلاغ لا يراد به مجرد إيصال الرسالة إلى الناس ، أى هو مجرد تبليغ ، فإن هذا التبليغ أو الإيصال لا يكلف جهداً أو مشقة إنما الذى يكلف الجهـد والمشقة ويقيم أمر الدين هو البلاغ بعد التبليغ ، أى الوصول بالـرسـالة إلى غايتها بإنشاء أمة من المؤمنين الصادقين ، وهذه الأمة هى التى يتصور بها الدين حقيقة نافعة للبشر ، وهل يمكن أن يكون هناك دين له فاعلية دون أن يكون هناك مؤمنون به ؟ إذن فلابد من إنشاء أمة الإسلام .

وهذه الأمة لا ينبغى أن تكون كياناً سياسياً يخدم غايات سياسية، بل لابد أن تكون بناء دينياً اجتماعياً خلقياً يخدم غايات إنسانية نابعة من هذا الدين القيم

« القـائم الدائم » لتكون هى آخر أمة قيمة تدوم دوام الدهر وتتسع لبنى آدم أجمعين ، وتلك كانت الغاية التى أنفق محمد رسول الله ثلاث عشرة سنة من عمره ليحققها فى مكة .

ولو أن محمداً اكتفى كغيره من أنبياء الله ورسله بتبليغ الرسالة لما كانت به حاجة إلى جهد ولا نصب ، لأنه خلال العام الأول من الرسالة ، وقبل دخوله دار الأرقم كان قد أبلغ الرسالة ، وجمع حوله طائفة طيبة من الأتباع لم يوفق إلى مثلها نبى مرسل قبله ، فعيسى مضى إلى ربه مخلفاً وراءه حفنة من الحواريين لا يبلغون نصف الجماعة التى كسبها محمد للإسلام قبل أن يدخل دار الأرقم ويدعـو فيها ، وموسى لم يصبر حتى يكسب فرعون وآله لرسالته ، بل اكتفى بقومه من بنى إسرائيل ومضى خارجاً من مصر ، وإبراهيم لم يكسب لدعوته إلا فئة قليلة من الناس ، ومضى إلى ربه فتفرقت من بعده بُدَداً غير هذا كله أو وراء هذا كله كان مطلب محمد لم يكتفِ بالتبليغ بل أصر على البلاغ .

والبـلاغ عنده كان تحويل قريش كلها إلى جماعة الإسلام وتوجيه الجماعة القرشية المسلمة إلى كسب العرب جميعاً . وكان رسول الله ﷺ يرى فى قريش من المواهب والملكات والخصائص ماهو قمين بأن يعينه على البلاغ الأكبر ، وهو إدخال البشر جميعاً فى دين الله .

ولكن الغالبية الكبرى من القرشيين لم تفطن إلى الغاية الكبرى التى كان محمد يدعوها إليها . وأبو جهل ـ ممثل المجتمع العربى قبل الإسلام ـ لم يستطع عمره كله أن يرى فى محمد إلا رجلاً من بنى هاشم بن عبد المطلب يريد أن يجدد رياسة بيت عبد المطلب ، وينتزع القيادة والرياسة ممن غصبوها بقوة المال والقدرة العسكرية من بنى أمية بن عبد شمس وبنى مخزوم بن يقظة وبنى أسد بن عبد العزى بن قصى وبنى سهم بن جمح وبنى عمرو بن هصيص وبنى تيم بن مرة . كان أبو جهل يرى نفسه سيد هذه القيادة الملكية القائمة على أموال التجارة المكية

من ناحية والقوة العسكرية التى تجلت فى الدور الأخير من حرب الفجار التى انتصرت فيها قريش على قيس عيلان كلها بقيادة العقابس والأعباس وهم عترة عبد شمس بن عبد مناف الذين فاقوا بنى عمومتهم أبناء عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف .

وهذا الحلف الضخم من الأغنياء الأقوياء ، هو الذى وقف فى سبيل الدعوة وانتهى فى السنة العاشرة للهجرة إلى إيقاف تقدم الدعوة فى مكة توقفاً تاماً .

وكانت غاية محمد الكبرى هى تحويل هذا الحلف الضخم إلى قاعدة للإسلام وكان هذا مستحيلاً ، لأن قادة الحلف أنفسهم لم يروا قط الغايات السامية البعيدة التى تنتظرهم من وراء الاستجابة للدعوة ، فوقفوا حيالها جامدين ، وهذا بالضبط هو ماعبرت عنه الآية ٢٣ من سورة الجاثية أدق وأصدق تعبير حيث قال رب العزّة : ﴿ **أفَرَأيْتَ مَن اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ الله عَلَى علم وَخَتَمَ عَلَى سَمعِهِ وَقَلبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهدِيهِ مِن بَعد الله أفَلَا تَذَكَّرُونَ** ﴾ .

ولكن لا سبيل إلى الاكتفاء بالتبليغ دون البلاغ ، وبعد محاولة غير موفقة مع سادة الطائفة بعد اتصالات ببعض الأحلاف القبلية الأخرى . كان اللقاء مع رجال يثرب ، وإن الإنسان ليعجب من دأب الرسول على الوصول إلى الغاية العليا .

كانت السنوات الثلاث التى أعقبت موت عبد المطلب وخديجة سنوات جد قاسية على رسول الله ﷺ ومع ذلك فما قعد عن الدعوة والسعى إلى إنشاء الأمة يوماً ، ماسمع بقوم وافدين على مكة إلا أسرع إليهم وماأشد ماكان يلقى من معظم أولئك الناس حتى إن بعضهم حثا التراب فى وجهه ، ومع ذلك فلم تضعف له عزيمة ، وكان لابد أن يوفق . ولم يكن اللقاء مع أهل يثرب وتوفيقه

معهم مصادفة ولا ضربة حظ فمثل هذا الرسول المؤمن الدؤوب لابد أن يصل إلى مايريد .

* * *

وفى سنة ٦١١ م (٢ قبل الهجرة) كانت بيعة العقبة الأولى وفى عام ٦١٢ م . (خلال عام ١ قبل الهجرة) كانت بيعة العقبة الثانية ، والعقبة الثانية هى بداية قيام أمة الإسلام ، ودع عنك ماتذكره الروايات من أن العباس بن عبد المطلب كان هو الذى خرج مع محمد للقاء وفد أهل يثرب ممن اجتذبتهم الدعوة المحمدية عندما تحدث إليهم محمد فى العقبة الأولى . فما كان العباس - وهو إذ ذاك وثنى مشرك - بالذى يتحدث باسم محمد ، ولا يستقيم بحال أن يقال إن العباس تحدث باسم بنى هاشم قوم محمد ، فما كانت دعوة الإسلام عصبية قبلية حتى يأذن محمد فى أن يتحدث عنه رجل من أهل عصبيته ، ثم إن محمداً كان أعلى مقاماً ومكانة فى بنى هاشم من العباس بن عبد المطلب ، فكيف يتحدث الأدنى باسم الأعلى ؟ وإذا كان ولابد من رجل أو ناس من بنى هاشم فأين منها حمزة ، وهو كان أكبر مقاماً من العباس ، وعندما أسلم حمزة ارتجت قريش كلها لإسلامه . . . هذه إضافات لحقت السيرة أيام بنى العباس ، وهى كانت بعض وسائلهم فى إضفاء الشريعة على خلافتهم .

والأقرب إلى العقل أن يتحدث محمد رسول الله عن محمد رسول الله ، وهذا هو الذى حدث ، ويستوقف نظرنا أن محمداً ، وهو الباحث عن قوم يقيم فيهم وبهم الدعوة ، يتحدث إلى أولئك الناس حديث السيد الذى يعرف مايريد ، فهو لا يطلب الحماية أو المأوى إنما هم أهل يثرب أنفسهم هم الذين سمعوا إلى

قول الرسول ﷺ وأطاعوه ، وهذا هو البراء بن معرور يخاطب الرسول ـ لا العباس ويقول : تكلم يارسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ماأحببت ؟ .

ومن يقرأ هذا الكلام لا يحس أنه أمام رجل يبحث عن حماية إنما يحس أنه أمام رجل يخاطب مؤمنين به ويسألهم إن كانوا قادرين على القيام بأمر دعوته ، أى أنه منذ اللحظة الأولى كان يريد أن يعقد عهداً موثقاً (بيعة) مع قوم لا يكتفون بالدخول فى الإسلام ، بل يعاهدون صاحب الرسالة على أن يؤكدوا ماالتزموا به فى العقبة الأولى من الإيمان بالله الواحد « على ألا نشرك بالله شيئا ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل أولادنا ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، فإن وفيتم فلكم الجنة » . ويتعهدوا إلى جانب ذلك بأن يقوموا بحماية هذه الدعوة . وعندما نسمع رسول الله يقول : « على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم » فإننا ينبغى أن نفهم من ذلك أن المراد بالمنعة هنا هو الإسلام نفسه . لأن محمداً لم يكن يبحث عن قوم يعيش آمناً فى كنفهم فى سكون . وإذا كان مجرد الأمن هو مطلبه ففيم الهجرة وفيم طلب المنعة ، وقريش كلها ترجوه من أكثر من عشر سنوات أن يكف عن الإصرار على إدخالهم فى الإسلام ويدعوه آمنا ماشاء . .

وإذا كان هؤلاء القوم أتوا ليؤكدوا لمحمد أن الكثيرين من قومهم مالوا إلى دعوته ، فلماذا لم يذهب معهم دون عقد أو عهد ؟ ولم يكن فى تقاليد العرب فى الجاهلية مايتطلب عقداً أو عهداً لكى يجير قوم رجلاً . كان يكفى أن يقول واحد من القوم إنه يجيره . بل كان يكفى أن يمس الرجل طنب الخيمة حتى يحق له الجوار ، ويكون المجير ملزماً فى هذه الحالة بمنعه مما يمنع منه أهل بيته .

وإذن فما الذى كان الرسول ﷺ يسعى إليه فى هذا اللقاء ؟ الذى كان يريده هو عقد عهد وميثاق بين الدعوة التى يحملها وأولئك الذين يعرضون أن يدخلوا فيها ويقوموا بحمايتها ، أى الذين يتصدون لكى يكونوا أمنها وقاعدتها .

واستمع إلى البراء بن معرور يتحدث باسم أهل يثرب بعد أن تلا محمد القرآن ودعا إلى الله ورغب فى الإسلام « نعم والذى بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه أزرنا يعنى نساءنا وأهلنا ـ وكانت تلك عبارة تقليدية فى مثل هذه العقود ثم يقول البراء بن معرور : فبايعنا يارسول الله ، فنحن والله أهل الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر » .

وهذا ماكان محمد رسول الله ﷺ يطلبه : عقد واتفاق أو عهد أساسى بين الإسلام وبين من يريدون أن يكونوا أمة الإسلام . كان يطلب عهداً وميثاقاً شرعياً بين الإسلام ورجال أمة الإسلام ، بعبارة أخرى : كان لا يريد أن ينتقل إلى أولئك الناس إلا على شريعة أى دستور متفق عليه من الجانبين .

البيعة عقيدة والتزام

أما بعد ، فإنى وليت أمركم ولست بخيركم ، ولكنه نزل القرآن ، وسن النبى ﷺ ، وعلمنا فعملنا ، واعلموا أيها الناس أن أكيس الكَيس التقى ، وأعجز العجز الفجور ، وأن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ له بحقه ، وأن أضعفكم عندى القوى حتى آخذ منه الحق ، أيها الناس ، إنما أنا متبع ولست بمبتدع ، فإن أنا أحسنت فأعينونى ، وإن أنا زغت فقومونى ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

(كتاب الأصول لأبى عبيد القاسم بن سلام) .

وقفنا فى حديثنا السابق عند بيعتى العقبة الأولى والثانية ، وقلنا إن بيعة العقبة الأولى كانت ارتباطاً بين محمد ﷺ ونفر من أهل المدينة على أساس العقيدة فحسب ، وخبرها كما حكاها ابن إسحاق رواية عن رجل ممن شهدوها وهو عبادة ابن الصامت : « بايعنا رسول الله ﷺ ليلة الأولى على ألا نشرك بالله شيئاً . ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل ، ولا نأتى ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى معروف ، فإن وفيتم فلكم الجنة ، وإن غشيتم (نقضتم) من ذلك شيئاً فأخذتم بحده فى الدنيا ، فهى كفارة له ، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة ، فأمركم إلى الله عز وجل ، إن شاء عذب وإن شاء غفر .

فالبيعة الأولى كانت على التوحيد والخط الإسلامى الأخلاقى ولا زيادة ، ولا بأس بذلك ، فهذا ـ فى النهاية ـ هو لباب الإسلام ، ثم إنها بيعة فعلاً ، أى صفقة : أخذ وعطاء ، هم يلتزمون بمبادىء الإسلام ويأخذون فى سبيل ذلك

سعادة الدنيا بالسير على خط خلق رفيع ، ثم الجزاء الحق من الله سبحانه وتعالى ، وهو سعادة الآخرة لمن التزم بالميثاق .

ثم كانت العقبة الثانية بعد ذلك بعام ، وربما أقل ، وفيها يأخذ الميثاق صورة جديدة تؤيد صورة ميثاق العقبة الأولى من ناحية ، وتزيد عليها بعد ذلك ، فمحمد سيترك بلده وينتقل إلى بلد آخر بين قوم جدد معظمهم لا يعرفونه ، وإذن فلابد أن يكون فى الاتفاق مايضمن له الأمن والسلامة ، ويفتح أمامه الأبواب لنشر الإسلام ، وقد أتينا بنص الاتفاق فيما قلنا آنفاً ، ونضيف هنا خبراً يؤكد معنى تلك البيعة الثانية ، فهى ليست ميثاقاً على الالتزام بخط أخلاقى فحسب ، بل فيها اتفاق تستطيع أن تسميه سياسياً ، فقد قام أبو الهيثم بن التيهان وهو كان ثانى المتحدثين باسم القوم فى هذه المراحل الأولى - فقال : إن بيننا وبين « الرجال » حبالاً ، وإنا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ فتبسم رسول الله ﷺ ، ثم قال : بل الدم الدم والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم . . وابن إسحاق ومن تابعه - ابن هشام والسهيلى شارح سيرة ابن هشام فى كتابه « الروض الأنف » بضم الهمزة والنون ومعناه الروض اليانع ، والزرقانى صاحب شرح المواهب اللونية للقسطلانى (أى أنه شرح سيرة ابن هشام) - هؤلاء جميعاً يقولون إن المراد « بالرجال » هنا اليهود ، أى يهود المدينة ، وهو تكلف لا معنى له ، لأن المراد - إذا أخذنا الكلام مأخذه السهل المنطقى : أننا يارسول الله سندخل معك الآن فى اتفاق شامل يلغى اتفاقاتنا مع غيرنا من الناس ، فهل نحن إذا فعلنا ذلك وانتصرت بنا هل تتركنا وتعود إلى قومك ؟ وهنا يؤكد الرسول التزامه من ناحيته بعبارة تقليدية كانت العرب تقولها فى مثل هذه الاتفاقات ، ومعناها : إن دمى بهذا الاتفاق دمكم ، لقد أصبحت منكم وأنتم منى أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم ، وبيوتكم

هى بيوتى ، فإذا هدمتم خيامكم وارتحلتم إلى موضع آخر سرت معكم (الهدم الهـدم) أى أن وطنكم أصبـح وطنى ، فهو ارتباط دم وارتباط حرب وإسلام وارتباط وطن .

وبيعة العقبة الثانية على هذا ميثاق كامل : فيه العقيدة ، وفيه التزام من الطرفين إلى آخر المدى . كلا الطرفين يأخذ ويعطى ، وليس هناك عطاء من جانب واحد ، أو أخذ من جانب واحد ، فإن ذلك يجافى طبيعة تكوين أمة الإسلام .

هذا الكلام الذى نقوله ليس مجرد تحقيق علمى ، بل نحن ندخل هنا ـ منذ البداية ـ فى صميم التكوين السياسى لأمة الإسلام ، فهو تكوين يقوم على بيعة أو ميثـاق أو تعاهد ، والبيعات والمواثيق والصفقات والعهود والمعاهدات كلها اتفاقات تقوم على التراضى وتبادل المنافع المتعادلة من الطرفين ، فإذا كان هناك إجحاف بواحد من الطرفين ، أو إذا كان هناك عطاء من جانب واحد أو أخذ من جانب واحد لم يصح إسلامياً أو عملياً ، وهنا نضع يدنا على السبب الرئيسى فى فشل دولة بنى أمية ، فقد قامت على أخذ من جانب واحد : معاوية وآله أخذوا طاعة الأمة وأموالها ولم يعطوا شيئاً ، فالبيعة بطبيعتها غير إسلامية ، وإذن فهى باطلة شرعاً أولا ثم عملياً بعد ذلك . وكذلك القول فى دولة بنى العباس ، فقد زعموا أنهم أخذوا الخلافة إرثاً عن رسول الله ﷺ ، ورسول الله لم يملك أمة الإسلام حتى يرثها عنه بنو العباس أو غيرهم ، فالبيعة باطلة أساساً : إسلامياً أولاً ، ثم عملياً بعد ذلك .

ونحن عندما نقول إن محمداً صلوات الله عليه لم يملك أمة الإسلام نعنى مانقول . فإن أمة الإسلام فى الحقيقة هى أمة الله سبحانه ، والميثاق فيها ليس بيننا وبين محمد ، بل بيننا وبين الله سبحانه ، والتزامنا فى هذا الاتفاق هو نفس التزام محمد فيه ، فنحن لسنا أتباعه إلا على المجاز ، لأنه هو الذى حمل إلينا

الرسالة أو على المحبة ، لأننا نحبه فتتابعه عن حب وثقة ، ولهذا فإننا نحن معاشر المسلمين لا نسمي أنفسنا قط بالمحمديين ، ونكره أن يقال عنا إننا Mohammedans كما يقولون عن أنفسهم إنهم Christians مثلاً أي اتباع خيستوس أي المسيح ومحقق البشارة ، إنما نحن نقول إسلامياً : إننا نحن ومحمد أمة الله وأتباع الحق ، ومحمد في ذلك هو نبينا ورسول الله فينا وحامل هداه إلينا ومبلغ كلماته وإمامنا ، وهو الذي رسم لنا الطريق القويم في العبادات وفي تطبيق الشريعة وفي مكارم الأخلاق ، ومرة أخرى نتلو الآيات الفاصلة من سورة الأحزاب وهي الثالثة والثلاثون من سور القرآن : ﴿ **يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرسَلنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً ، وَبَشِّرِ المُؤمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللهِ فَضلاً كَبِيراً** ﴾ . (الآيات ٤٥ ـ ٤٧) ولنلاحظ أن هنا أيضاً نجد قاعدة الأخذ والعطاء ، فنحن المؤمنين نتبع النبي الشاهد المبشر النذير الداعي إلى الله بإذنه السراج المنير ، وفي مقابل هذا يبشرنا البشير بأن لنا من الله فضلاً كبيراً .

ونحب أن نشير هنا إلى عبارة « إن بيننا وبين الرجال حبالاً » فالحبال هنا جمع حبل ، ويراد في مصطلح العرب في ذلك الحين العقد والعهد والميثاق فكانوا ومازالوا في جزيرة العرب يقولون : إن بيننا وبين أولئك القوم حبلاً أو حبالاً ، ويراد به الاتفاق أو الميثاق ، والذي أراده أبو الهيثم بن التيهان ، هو أننا بدخولنا في الإسلام وبعقدنا الميثاق مع الله سبحانه وتعالى ومعك ، نقطع المواثيق والاتفاقات التي بين غيرنا من الرجال ـ من يهود أو غير يهود ـ ونحب أن نطمئن إلى أننا إذا فعلنا ذلك وتم لك النصر نتيجة لذلك . أنك لا تتركنا وتعود إلى قومك ، فأكد لهم الرسول التزامه بالعقد والميثاق بأجلى وأدق صورة : بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم ، وهنا أشير إلى الآية ١٠٣ من سورة آل عمران ، وهي الثالثة من سور

القرآن الكريم بعد الفاتحة والبقرة : ﴿ **وَاعتَصِمُواْ بِحَبلِ الله جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذكُرُواْ نعمَةَ الله عَلَيكُم إذ كُنتُم أعدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلوبكُم فَأصبَحتُم بنعمَته إخواناً وَكُنتُم عَلَى شَفَا حُفرَةٍ مِّنَ النَّار فَأنقَذَكُم مِّنهَا كَذلكَ يُبَيِّنُ الله لَكُمْ آيَاته لَعَلَّكُم تَهتَدُونَ** ﴾ .

فهذه الآية توكيد للمعنى الذى نستخلصه من كلام أبى الهيثم بن التيهان ، ورد الرسول عليه ، فإن أبا الهيثم ومن معه ممن بايعوا الرسول قطعوا بذلك الحبال التى بينهم وبين غيرهم ، واعتصموا بحبل الله ، أى دخلوا فى عهد الله وميثاقه ، والله سبحانه يأمر المؤمنين بأن يعتصموا بحبل الله جميعاً ، ، أى يتحدوا فى ميثاق الإسلام ، ويذكرهم بأن تركهم الحبال التى كانت بينهم وبين الناس واعتصامهم بحبل الله نعمة كبرى من الله ، فقد ألف بين قلوبهم فى كنف أمة الإسلام ، وأصبحوا بنعمة الله إخواناً . وكانوا قبل ذلك ـ ورغم الحبال التى كانت تربطهم بالناس أى بالرجال كما قال أبو الهيثم ـ على شفا حفرة من النار فأنقذهم الله بعهده وميثاقه من التردى فيها . .

وهنا نجد أنفسنا مرة أخرى أمام فكرة العهد والميثاق والأخذ والعطاء التى هى أساس الدخول فى دين الله وأمته ، فقد اعتصم المؤمنون بحبل الله وتركوا حبال الناس فتآلفت قلوبهم وأصبحوا إخواناً ، وتلك هى الرابطة الأساسية بين أفراد أمة الإسلام . . أنهم إخوان متآلفة قلوبهم بنعمة الله ، وهذا الاعتصام بحبل الله على أساس التآلف والأخوة هو سبيل النجاة الوحيدة أمام أمة الإسلام ، وبدون ذلك يكون المسلمون على شفا حفرة من النار .

اذكر هذه الآية واستعرض فى ذهنك تاريخ أمة الإسلام وماجرى عليها من المصائب ، تجد أن سببها أنهم لم يعتصموا بحبل الله جميعاً وتفرقوا ، فترددوا فى حفرة النار التى لم ينقذهم منها فى فجر الإسلام إلا اعتصامهم بحبل الله ، فالمعنى هنا سياسى وأخلاقى ودينى ، وقوة الإسلام ترجع إلى أن أخلاقياته من

حب وتآلف وأخوة وصدق هى أسس وقواعد سياسية كذلك ، فالخط الأخلاقى هو خط سياسى فى نفس الـوقت ، والسياسـة فى الإسـلام هي الأخـلاق ، ولا يمكن أن تفلح أمة الإسلام سياسياً إذا لم تكن صالحة أخلاقياً . .

وهنـا نلاحظ أن كل المفكـرين السياسيين المسلمين ـ وكلهم فقهاء ـ قد غابت عنهم هذه الحقيقـة ، فحسبـوا أن السياسـة شىء والإسـلام وعقيدتـه وشريعته شىء آخر ، فالسياسة عند ابن خلدون قوانين سياسية مفروضة يسلمها الكافة وينقادون إلى أحكامها ، كما كان ذلك للفرس وغيرهم ، ثم يفرق ابن خلدون بين السياسـة العقلية المفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها ، والسياسـة الشرعية وهى مفـروضـة من الله بشارع يقررها ويشرعها ، وكانت سياسة دينية نافعة فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ومايسميه ابن خلدون سياسة دينية هو مايسميه ابن تيمية سياسة شرعية ، وهى عندهما معا « حمل الكافة على الأحكام الشرعية فى أحوال دنياهم وآخرتهم ، وكان هذا الحكم لأهل الشريعة . وهم الأنبياء ومن قام فيه مقامهم وهم الخلفاء » ثم يدور ابن خلدون دورة طويلة ثم يقول : « والخلافة هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبـارهـا (مرتبـطة) بمصالح الآخرة ، فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به » والدين عنده هو الأحكام الشرعية ، أى الأحكام التى يصدرها الفقهاء قضاة كانوا أو أهل مشاورة وفتوى . .

وماسكت عنه ابن خلدون ، ذكاء منه وحرصاً ، يصرح به تقى الدين أحمد ابن تيمية فى كتاب « السياسة الشرعية ، فى إصلاح الراعى والرعية » فهو يقول فى فاتحـة الكتـاب « أما بعد . . فهذه رسالة مختصرة فيها جوامع من السياسة الإلهية والآيات النبوية لا يستغنى عنها الراعى والرعية ، اقتضاها من أوجب الله نصحه من ولاة الأمور ، كما قال النبى ﷺ فيما ثبت عنه من غير وجه : « إن الله

يرضى لكم ثلاثة : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم » ، وواضح أن هذا الحديث وكل الأحاديث التى تنص على وجوب طاعة الحكام فى كل مايأمرون به إلا مايتضمن معصية الله سبحانه ، ينبغى أن تؤخذ بحذر شديد ، لأنها ترمى إلى إخضاع الناس للحاكم مهما بلغ ظلمه ، مالم يكن كافراً أو آمراً بكفر أو معصية واضحة لأمر من أوامر الله تعالى ونواهيه ، وبديهى أنه لم يوجد قط حاكم يأمر الناس صراحة بمعصية الله . إنه هو يعصى الله ويقتل ويغتال خصومه وينهب أموال الرعية ، وهذا ظلم ، ولكنه ليس كفراً ، وهى معاص منه فى حق الله ، وحسابه على الله لا على الناس ، وكل مايتعين على الفقهاء وأهل الشرع هو النصيحة ، والنصيحة لا تضر الحاكم فى شىء مالم تتحول إلى مطلب ، وهذا هو الذى جعل كل كتابات المسلمين فى السياسة كتب مواعظ ونصائح للحكام بالعدل وأوامر للناس بالطاعة . وكتاب السياسة الشرعية لابن تيمية إنما هو كتاب فى إصلاح الرعية ، أما إصلاح الراعى فخارج عن ولاية الفقيه .

والوحيدون الذين حولوا النصيحة إلى مطلب ، والمطلب إلى أمر للحاكم ، واعتبروا عدم إطاعة الحاكم لأمر الرعية خروجاً عن الدين ، واعتبروا هذا الخروج كفراً هم تلك الطائفة المظلومة التى نسميها الخوارج ، والخوارج فى النهاية هم الذين تمسكوا بالخط الإسلامى القديم وأنكروا « الخلافة الملك » وقالوا إنها ليست إسلامية ، وإن الحكم بالقوة والغصب ردة بالإسلام إلى نظم الجاهلية . وتمسكوا بالشورى واحترموا قيمة الإنسان ، وقالوا : لا حكم إلا لله ، واختاروا واحداً من عامتهم وهو عبد الله بن وهب الراسى وبايعوه بالإمامة على الشورى والعمل بكتاب الله وسنة رسوله ، وأرادوا إعادة الأمة كلها إلى الجادة كما فعل أبو بكر مع أهل الردة ، ولكن الخلفاء الملوك حاربوهم باسم الدين وسموهم الخوارج . . وهم فى الحقيقة الدواخل ، ووقفت الأمة كلها تتفرج حتى انكسرت

شوكتهم ولم تبق منهم إلا شراذم مفرقين فى أطراف البلاد : فى الغرب الأوسط وفى جبال عمان .

* * *

إذا نظرنا فى بيعة العقبة الأولى وجدنا أنها مجرد الدخول فى الإسلام ، والنطق بالشهادتين واجتناب المحرمات ، أى أنها كانت أخذاً بدون عطاء ، وقد أجاد الرسول ذلك لأن الأمة لم تكن قد قامت بعد .

أما بيعة العقبة الثانية فكانت الحجر الأول فى بناء الأمة ، أى أن الدخول فى تلك البيعة كان يستتبع الدخول فى الأمة ، والأمة كيان سياسى يعطى الداخلين فيه ميزات . والأمة لابد أن تكون فى نفس الوقت قوة أو وحدة سياسية لها قوتها العسكرية الذاتية ، إلى جانب قوتها المعنوية ، وهذا كله لابد أن يكون له مقابل ، والأخذ لابد أن يقترن بالعطاء ، هذا هو منطق الحياة وهو أيضاً منطق الحياة الصحيحة ، لأن الإسلام هو الحياة الصحيحة أو الحياة الصحية كما نقول ، ولهذا فقد كان لابد من التزامات أخرى غير مجرد النطق بالشهادتين . هذه الالتزامات هى التى عبر عنها البراء بن عازب بقوله « نعم والذى بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع أزرنا ، فبايعنا يارسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلْقة (السلاح) ورثناها كابراً عن كابر أى أن الدخول فى الإسلام أصبح فى نفس الوقت الدخول فى الأمة ، والأمة لابد أن تكون قوة والقوة هى المسلمون ، أى أن عضو الأمة لابد أن يكون مستعداً للذياد عنها بماله ودمه . .

فى مقابل ذلك التزم الرسول ـ وكان ملتزماً به دون حاجة إلى القول ـ بأن نصل تماماً عن قومه ، وأن يظل فى أمته ومعها ، وأن يكون من الأمة ، والأمة

منه ، ولكن أبا الهيثم بن التيهان (بفتح التاء وتشديدها وكسر الياء وتشديدها) أراد أن يسمع ذلك بأذنيه ، لكى يطمئن قلبه ، وطمأنه الرسول بأكثر مما طلب ، وبذلك يصح عقد البيعة من الطرفين ، وعلى هذا الأساس يكون الحجر الأول من أحجار إقامة بناء أمة الإسلام قد وضع وضعاً صحيحاً سليمًا . .

ولم تكد هذه الخطوة الأولى تتم حتى خطا الرسول ﷺ الخطوة الثانية ، لقد قامت الأمة بهذا الميثاق الأول ، نعم إن عدد أفرادها الذين بايعوا الرسول كانوا ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين ، ولكن هذا العدد هنا لا يهم ، لأن وراء كل واحد من هؤلاء رجالاً كثيرين ، ثم إننا سنرى أن كل واحد من هؤلاء سيتحول بمجرد دخوله فى الإسلام وأمته من رجل جاهلى مجهول إلى صانع من صناع التاريخ ، لأن الإسلام يصنع الذين يدخلون فيه عن إيمان وصدق صنعاً جديداً . . والقضية هنا متبادلة : الإسلام يصنع رجاله ورجاله يصنعون أمته . . وأمته إذا بنيت بناء سليمًا . تصنع رجالها ، فهى أمة متجددة أو ينبغى أن تكون متجددة شريفة . . أن تكون سليمة التأسيس وأطرافها كلهم عارفين بمالهم وماعليهم ، أما أن يحسب الإنسان منا أن مجرد النطق بالشهادتين والقيام بعبادات الإسلام مستحقاً لكل ثواب المسلم العالم العامل المشارك فى بناء أمته وقوتها فكلام لا يستقيم .

وغريب من بعض الناس أن يتأملوا أحوال أمة الإسلام ثم يتساءلون : كيف تكون خير أمة أخرجت للناس وهذا حالها ؟ ولهؤلاء نقول : اقرأوا الآية كاملة أيها الناس ، وانظروا إلى ماقبلها ومابعدها ، ليصح فهمكم لها ، فإن الآية تقول ﴿ **كُنتم خَير أُمَّة أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأمُرُونَ بالمَعْروف وتَنْهَوْنَ عَن المُنكَر وتَؤمِنُونَ بالله** ﴾ . (آل عمران : الآية ١١٠) بهذا تكتمل الآية ويتم المعنى فهنا أخذ : وهو أن أمة الإسلام تكون خير أمة للناس ، وهنا عطاء : وهو أن يأمر المؤمنون بالمعروف وينهون عن المنكر فإذا لم يأمر المؤمنون بالمعروف أى

با لمتعـارف عليه أى بيا تعهـدوا عليه ، وإذا لم ينفـوا من جماعتهم ماينكـره الخلق الإسـلامى ، فـلا يمكن أن تكـون أمـة الإسلام خير أمـة أخـرجت للنـاس .

واقرأ بقية الآية والتى بعدها ففى ذلك تمام المعنى وهو :

﴿ وَلَوءَا مَنَ أهـلُ الكِتَابِ لَكَانَ خَيراً لَّهُم ، مّنهُمُ المؤمنونَ وَاكثَرُهُمُ الفَاسِقُونَ ، لَن يَضُرُّوكُم إلاَّ اذَىَ وَإن يُقَاتِلوكُم يُوَلُّوكُمُ الادبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ ﴾ .

واسـأل نفسك معى : ألسنا نحن أيضاً أهل الكتاب ؟ هذا حق ولكننا نسمى أنفسنا أهل الكتاب بأداة التعريف وهو القرآن ، ولو أننا آمنا كما ينبغى أن يكون الإيمان لكان خيراً لنا ، ومنا مؤمنون ولكننا تحولنا خلال عصور التدهور والركود ، فصار أكثرنا فاسقين ، ولذلك لا نبلغ مع أعدائنا إلا أذى ، وكنا إذا حاربنا ولّينا مدبرين .

إذن فإننا وصلنا إلى الحالة التى لا تعجبنا ولم نعد خير أمة أخرجت للناس ، لأننا لم نف بالميثاق ، لأننا لم نكن أهلاً لمسئولية العهد ، لأننا تصورنا الإسلام أخذاً بدون عطاء .

ونعـود إلى النص كما يرويه ابن إسحـاق برواية ابن هشام قال كعب بن مالـك . وقد قال رسول الله ﷺ : « **أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيباً ، تسعـة من الخزرج وثلاثة من الأوس** » . والنقيب كما فى لسان العرب هو عريف القوم والجمع نقباء والنقيب العريف وهو شاهد القوم وضمينهم . أى أن رسول الله طلب إليهم أن ينتخبوا من بينهم اثنى عشر مندوباً أو نائباً كما نقول لكى يتحدثوا باسم جماعتهم لكى يشاورهم الرسول فى الأمر . .

(هى الشورى إذن) . . .

وفيم كان رسول الله ﷺ يحتاج لهؤلاء النقباء أو العرفاء أو النواب ؟ لقد وثق فيه القوم وبايعوه وأعطوه صفحة يمينهم بل قال البراء بن معرور : إنهم مستعدون لأن يقوموا بكل مايطلب منهم . .

وقد كان رسول الله ﷺ يستطيع أن يختار من يريد ليستشيره فيما يرى ، كما سيفعل حكام المسلمين فيما بعد ، فيكون المستشارون مرايا يرى الحاكم فيهم نفسه ، يشيرون عليه بما فى نفسه استبلاغاً فى الذلة والطاعة .

ولكن الرسول طلب إليهم أن يختاروا من بينهم من يمثلهم ويتحدث باسمهم ، لأن الإسلام كما قلنا يقوم على التراضى والاتفاق والتشاور فى كل مايتعلق بأمور المعاش ، وسنرى فيما سينقص من قيام أمة المدينة أن هؤلاء النقباء كانوا نواباً بالفعل عن قومهم وعن الإسلام كله ، حقاً لم يكونوا بأهل انقياد وتسليم ، بل أهل رأى ومشورة ، وقد كان لهم النصيب الأول فى شئون أمة المدينة وفى أكثر من موقف كان رأى رجال من أهل الشورى هو الذى قاد المسلمين إلى الطريق السليم .

وكان هذا يعجب محمداً ويسره ، لأنه كان يعلم أن الناس أعرف بأمور دنياهم ، وقد قالها مرة ، وكما أن الإسلام فى أساسه أخذ وعطاء فى العمل ، فهو أخذ وعطاء في الرأى ، ولا يستقيم أمر أمة الإسلام إلا بأهل الشورى يختارهم الناس اختياراً حراً . كما حدث أيام الرسول ﷺ .

وإذن فالشورى بصورتها التى قدرها الرسول بها ونفذها أساس من أسس بناء أمة الإسلام ، وبدونها لا يكون تسيير أمور الجماعة حواراً وتبادل آراء ، بل يكون إملاء ، وهنا لا تسير أمة الإسلام فى طريقها الصحيح ، بل تنتكس وترتد كسروية أو قيصرية ، وتتوقف رسالة الإسلام فى أمة الإسلام ، ويكون الانتكاس الخطير الذى وصفناه فى مقالنا الأول . . ونحن نقرأ فى سورة آل عمران

﴿ فَبِما رَحمَةٍ مِّنَ الله لِنتَ لَهُم ، وَلو كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلبِ لَا نفَضُّواْ من حَولِك ، فَاعفُ عَنهُم وَاستَغفِر لهُم وَشَاوِرهُم فِى الأمر . فَإذَا عَزَمتَ فَتَوَكَّل عَلَى الله ، إنَّ الله يُحِبُّ المتَوكِّلينَ ﴾ . (الآية ١٥٩) .

ولفظ شاورهم هنا فعل أمر مثله فى ذلك مثل : أقم الصلاة ، فلماذا أهمل الفقهاء الوقوف عند ذلك الأمر الصريح ؟ لماذا لم يقننوه ويضعوا النظام لتطبيقه ؟ ولماذا طبق المسلمون الشورى أيام الرسول ؟

لأنه كان رحيم القلب لين الطبع يصفح ويعفو ويستغفر للناس ، ولماذا لم يطبق معاوية بن أبى سفيان ومن بعده الشورى ؟

لأنه كان فظاً غليظ القلب تهون عليه الدماء فى سبيل السلطان ، ولهذا خافه الفقهاء وأهل الرأى على أنفسهم . .

وماكان ينبغى أن يخافوا لأن الموت فى سبيل الحق أساس من أسس قوة أمة المدينة . .

ولكن هذا هو الذى حدث .

ونحن لا نقوم بهذه الدراسة لنصلح الماضى ، فإن الماضى لا يصلح ، ولكننا نقوم بها اليوم والغد ومابقى من عمر أمة الإسلام أكثر مما فات بكثير . .

وفى القرآن سورة كاملة أسماها الشورى ، وهى الثانية والأربعون من سور القرآن ، وفى الآية ٣٨ منها تقرأ فى خصائص المؤمنين أعضاء أمة الإسلام :

﴿ وَالَّذينَ استَجَابُواْ لِرَبِّهِم وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمرُهُم شُورَى بَينَهُم وَمِمَّا رَزَقنَاهُم يُنفِقُونَ ﴾ .

وإذن فرسول الله عندما طلب من وفد المدينة أن يختاروا من بين أنفسهم اثنى عشر نقيباً كان يقرر قاعدة أساسية من قواعد بناء أمة الإسلام . .

القرآن إلهى بمصدره
إنسانى بغاياته

إن كل آية من آيات القرآن ، وكل حديث من أحاديث الرسول ، يقصد إلى خير الإنسان على إطلاق دون تفضيل إنسان على إنسان إلا بميزان الأخلاق الإسلامية (التقى) ، ومايستطيع الإنسان تقديمه من الخير لأمة الإسلام (البر) ، وتلك هى القاعدة الصلبة التى أقام عليها الرسول أمة الإسلام .

وقفت فى حديثى السابق عند الشورى التى رأى الرسول ﷺ أن يجعلها قاعدة من قواعد بناء أمة الإسلام من أول الأمر ، فما كاد يعقد العهد والميثاق مع أهل العقبة الثانية على أساس الأخذ والعطاء حتى قرر مبدأ الشورى ، فطلب إلى اليثربيين أن يختاروا من بين أنفسهم اثنى عشر نقيباً أى ممثلا لهم ، لكى يشاورهم فى الامر كما امر الله سبحانه وتعالى أمراً صريحاً جازماً لا يمكن التحلل منه فى الآية (١٥٩) من سورة آل عمران .

ورسول الله عندما قرر ذلك كان يعرف أنه بذلك يضع قاعدة أساسية من قواعد بناء أمة الإسلام ، لأن أمة الإسلام هى أمة الناس جميعاً وليست أمة جماعة من البشر دون جماعة والدين كله جاء لخير الناس ، والإنسان إطلاقاً هو محور الدين وجماعته ، والقرآن إلهى بمصدره ، ولكنه إنسانى بغاياته ، فليست فى القرآن آية واحدة لا يراد بها خير الإنسان والناس ، فالله سبحانه غنى عن

العالمين ، وإذا كان الدين عقيدة وشريعة فإن الإيمان بالعقيدة والتزامها خير كل الخير للإنسان ، والشريعة بقسميها ـ العبادات والمعاملات ـ هى طريق الخير للإنسان فى حياته على الأرض ، والقرآن كله ـ مهما اختلفت صيغة الخطاب فيه موجه للناس ، أقصد أنه موجه من الله إلى الناس إطلاقاً ، ومحمد ﷺ بشر من الناس ورسول إلى الناس .

وفى سورة الإسراء آيات بينات توضح المعنى الذى أريده :

﴿ قُل سُبحَانَ رَبّى ، هَل كُنتُ إلَّا بَشَراً رَّسُولاً ، وَمَامَنَعَ النَّاسَ أن يُؤمِنُواْ إذ جَآءهُمُ الهُدَى إلَّا أن قَالُواْ : أَبَعَثَ الله بَشَراً رَّسُولاً ، قُل لَّو كَانَ فى الأرض مَلَائكة يَمشُونَ مُطمَئِنِينَ لَنَزَّلنَا عَلَيهم مّنَ السمَاء مَلَكاً رَسُولاً .... ﴾ .

(الإسراء : ٩٣ ـ ٩٥) .

وعبارة « ياأيها الذين آمنوا » تتكرر فى القرآن عشرات المرات ، وكذلك عبارة « ياأيها النبى » و « ياأيها الملأ » لأن الله سبحانه يخاطب الناس مباشرة ولن تجد الخطاب موجهاً فى القرآن إلى « أولى الأمر » أو إلى العلماء أو إلى الملوك أو إلى سراة الناس » ، لأن الإنسان العادى ، الإنسان إطلاقاً هو المقصود فى القرآن والإسلام كله ، ورسول الله واحد من الناس اختاره الله وزانه بالكمالات وهيأه لحمل رسالته إلى الناس .

وعندما اتجه الرسول إلى علية القوم ليكسبهم للدين قال له الله سبحانه :

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ، أن جَاءَهُ الأعمَى ، وَمَايُدرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَى ، أو يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذكرىَ ، أَمَّا مَنِ استَغنَىَ ، فَأنتَ لَهُ تَصَدَّى ، وَمَاعَلَيكَ ألَّا يَزَّكَّى ، وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسعَى ، وَهُوَ يَخشَى ، فَأنتَ عَنهُ تَلَهَّىَ ، كَلَّا إنَّهَا تَذكرةٌ ، فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ . (سورة عبس ١ ـ ١٢) .

لهذا فإن أمة الإسلام ينبغى أن تكون أمة الناس عامة وهى فى هذا تختلف عن أمم الجاهلية ، أمَّا ماقبل الإسلام فتلك كانت أمم الملوك والكهان وعلية القوم ، والأمراء والقادة ـ عسكريين وسياسيين ـ والأغنياء والأقوياء ولهذا فسد أمرها وضلت الطريق .

ولهذا طلب رسول الله من رجال يثرب أن يختاروا نقباءهم أو نوابهم لكى يشاوروهم فى الأمر ولكى يكون الأمر فى أمة الإسلام شورى .

ومن أكبر الدلائل على ذلك أن الله نزل القرآن بلسان عربى مبين ، أى واضح يفهمه عامة الناس :

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ، عَلَى قَلبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنذِرِينَ ، بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾ . (الشعراء الآيات ١٩١ ـ ١٩٥) .
وفى سورة المائدة **﴿ قَدْ جَاءكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾** (من الآية ١٥) .

والقرآن يوصف فى القرآن نفسه مرة بعد أخرى بأنه « كتاب مبين » « وقرآن مبين » . . و « الكتاب المبين » ومهمة رسول الله ﷺ توصف بأنها « البلاغ المبين » .

﴿ وَلَقَد أَرسَلنَا مُوسَى بِأَيَاتِنَا وَسُلطَانٍ مبِينٍ ﴾ . (هود : الآية ٩٦) .

فالمبين هنا هو « السلطان » وسلطان موسى كان السحر المبين . ويؤيد ذلك قول الله سبحانه فى سورة « المؤمنون » (الآية : ٤٥) . **﴿ ثُمَّ أرسَلنَا مُوسَىٰ وَأخَاهُ هَارونَ بِأيَاتِنَا وسُلطانٍ مُّبِينٍ ﴾** . ومثله قول الله فى سورة غافر (الآية ٢٣) . **﴿ وَلَقَد أَرسَلنَا مُوسَىٰ بِأيَاتِنَا وَسُلطَانٍ مُّبِينٍ ﴾** . فقارن هذا بقول الله سبحانه فى أول سورة الزخرف : **﴿ حمٓ وَالكِتَابِ المُبِينِ إِنَّا جَعَلنَاهُ قُرآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُم تَعقِلُونَ ﴾** . (الآيات : ١ ـ ٣) .

والأمثلة من الآيات القرآنية هنا كثيرة جداً ، وكلها تؤكد المعنى الذى أقصد إليه هنا ، وهو أن رسالة الإسلام جاءت فى لسان عربى مبين يفهمه الناس كافة . حتى إذا أنت ترجمت معانيه إلى لغة أخرى كانت واضحة لا لبس فيها إذا كان الناقل محسناً لنقل المعانى من اللسان العربى المبين إلى لغة مبينة بلسانه أيا كان ، لأن القرآن كما قلنا موجه للناس على إطلاق » .

ولهذا أراد الرسول أن يكون على صلة مباشرة بالأمة فطلب إليها منذ البداية أن تختار الذين سيكونون من أهل الشورى .

وغريب من الأمر أن الذين فهموا رسالة الإسلام عندما استمعوا إليها كان معظمهم من بسطاء الناس فى الجماعة المكية والجماعة المدنية على السواء ، أما كبار القوم وسادتهم وفطاحل شعرائهم فلم يفهموا الرسالة أو فهموها وكبر عليهم أن يعملوا بها .

فهمها عمار بن ياسر ، ولم يكن بقرشى ولا مكى ، إنما هو ابن لاجىء يمنى يسمى ياسراً نزل مكة مع أخوين له : جاءوا من قبيلتهم عنس ليبحثوا عن أخ لهم . فدخل ياسر فى ولاء أبى حذيفة بن المغيرة من بنى مخزوم ، فزوجه أمة من إمائه تسمى سمية فأنجبت له ابنه عمار ، وكان عمار عندما بدأ رسول الله يدعو ، شاباً من عامة أهل مكة لا يقرأ ، ففهم الرسالة وأسلم هو وزوجه سمية وأسلم أبوه ياسر وأخوه عبد الله بن ياسر ، فتعلم ياسر بعد إسلامه وصار له فى أمة الإسلام شأن .

وفهمها ودخل فيها خباب بن الأرت ، وكان أسيراً فى مكة أصله من العراق وكانت فى كلامه لكنة إذا تكلم بالعربية وكان يعمل قيناً أى حداداً .

وفهمها صهيب بن سنان ، وكان أبوه سنان فارسياً أما هو فقد سباه الروم فنشأ فى بلادهم « فكان ألكن » كما يقول البلاذرى . فابتاعه رجل من قبيلة

كلب ، فقدم به مكة فاشتراه عبد الله بن جدعان سيد بنى تيم بن مرة بن كعب ، فاسترقه ثم أعتقه ، « فكان أحمر شديد الحمرة » ، فسمى روميا لذلك .

وكان صهيب من السابقين الأولين ، وكان فى المستضعفين . فلما أسلم كان ينفق ماله كله فى إطعام المساكين ، وقد أحبه الرسول صلوات الله عليه وقال فيه : « صهيب سابق الروم » .

وفهمها بلال بن رباح ، وهو حبشى مكى وبيع فى مكة ، وكان فى أول أمره لا يكتب ولا يقرأ ، وقد أصبح بلال من كبار أمة الإسلام فى المدينة وخبره معروف .

وفهمها عامر بن فهيرة وكان مولداً من مولدى الأزد وكان مملوكاً يرعى الغنم لمولاه .

وفى موضع قادم من مواضع هذه الدراسة سنتحدث بإسهاب عن عمار بن ياسر وخباب بن الأرت ، وصهيب بن سنان وبلال الحبشى .

وفهمتها وأسلمت زنيرة وكانت جارية فقيرة يَرْميها سادة مكة بالجهل ، وكان أبو جهل يتندر بها ويقول « ألا تعجبون لهؤلاء وأتباعهم - يريد المسلمين - فلو كان أمر محمد خيراً وحقاً ماسبقونا إليه . أسبقتنا زنيرة إلى رشد وهى من ترون ؟ ..

فاستمع إلى طرف من خبر زنيرة هذه يرويه البلاذرى فى أنساب الأشراف .

قال « وكانت زنيرة قد عذبت حتى عميت ، فقال لها أبو جهل : إن اللات والعزى فعلا بك ماترين ، فقالت وهى لا تبصره : وماتدرى اللات والعزى من يعبدهما ممن لا يعبدهما ، لكن هذا أمر من السماء وربى قادر على أن يرد بصرى

فأصبحت من تلك الليلة وقد رد بصرها ، فقالت قريش : هذا من سحر محمد فاشترى أبو بكر رضى الله عنه جارية بنى المؤمل وزنيرة وأعتقهما .

أجـل ، فهمهـا هؤلاء وغـيرهم كثـيرون لأن الإسـلام خاطب فيهم « الإنسان » خطاباً واضحاً مبيناً .

ولم يفهمها أبو جهل وهو الحكم بن هشام سيد بنى مخزوم ، وكان كاتباً قارئاً وسيداً مهيباً ذكياً ذا مال عريض . ولا نحسب أن أبا جهل كان كما نتصور رجلاً غبياً أحمق لا يفهم شيئاً ، بل كان رجـلاً لبيباً ، وكـان رسول الله ﷺ يرجوه للإسلام ، وقد دعا ربه ذات يوم فقال :

« اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين » . والأول عمر بن الخطاب والثانى أبو الحكم عمرو بن هشام . . ولكن غناه ومركزه فى قومه جعله يحسب نفسه فوق الناس ، ولهذا لم يفهم رسالة الإسلام لأنها رسالة للناس . واقرأ مايقوله محمد بن حبيب النسابة عن أبى جهل فى « المحبر » لتعرف حقيقة أبى جهل وتعرف كيف كان ممن (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) .

ولم يفهمها أبو لهب وهو عبد العزى بن عبد المطلب ، وكان كاتباً قارئاً ولكنه كان يرى نفسـه سيداً عظيمًا ، وكان شديد الغيرة من محمد ابن أخيه ، وكان يكرهه من صغره لأن محمداً كان أميل إلى حمزة وكان عمه أيضاً فحالت غيرته وكراهيته بينه وبين الإسلام . . .

ولم يفهمها اثنان من أكبر شعراء قريش فى زمانهما هما :

أبـو سفيان بن الحارث ، وكان من أهل قرابة الرسول ، فلما نزلت عليه الرسالة ، حسده حسداً شديداً وأبغضه وأخرجه البغض عن إنسانيته فمضى يذم محمداً بشعره ويقذع فى ذلك .

والثانى هو ضرار بن الخطاب وكان شاعراً مجيداً ، وكان من كبار قريش يرى أن هذه الرسالة كان لابد أن تنزل على واحد من عظماء قريش لا على محمد وكان واحداً ممن عنتهم الآيات الكريمة :

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ الحَقُّ ، قَالُواْ هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرونَ ، وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هَذاَ القُرأَنُ عَلَىٰ رَجُلٍ منَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ، أَهُم يَقْسِمونَ رَحمَةَ رَبِكَ نَحنُ قَسَمنَا بَينَهُم مَّعِيشَتَهُم فِى الحَيَاةِ الدُّنيَا وَرَفَعنَا بَعضَهُم فَوقَ بَعضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعضُهُم بَعضاً سُخرِياً وَرَحمَةُ رَبِكَ خَيرٌ ممَّا يَجمَعُونَ ﴾ .
(الزخرف : الآيات ٣٠ ـ ٣٢) .

لهذا طلب محمد إلى رجال يثرب أن يختاروا من بين أنفسهم نقباء يعرفون الأمة وتعرفهم الأمة لكى يكون الاتصال بينه وبين أمة المدينة مباشراً ، لكى تصل رسالة الإسلام إلى الناس ـ كل الناس ، ويكون الأمر شورى بين محمد وأصحابه ، والشورى أساس من أسس تنظيم أمة الإسلام ، ووضع القاعدة لها كان الخطوة الثانية التى وضعها الرسول صلوات الله عليه بعد تكوين نواة الجماعة على قاعدة العهد والميثاق والأخذ والعطاء .

والرواية التى رويناها التى تقول إن رسول الله ﷺ قال : « **أخرجوا إلى منكم أثنى عشر نقيبا ليكونوا على قومهم بما فيهم** » ، هى رواية ابن إسحاق الأولى ، وابن إسحاق رجل صادق يتحرى مايقول ، فانظر كيف أضاف الناس بعد ذلك إلى تلك الرواية الصادقة مايفسد معناها ومغزاها فاستمع إلى مايقوله البلاذرى فى أنساب الأشراف « ثم قال رسول الله ﷺ : « **إن موسى أخذ من بنى إسرائيل اثنى عشر نقيباً ، وإنى آخذ منكم اثنى عشر ، فلا يجدن أحد منكم فى نفسه شيئاً فإنما يختار لى جبريل فلما سماهم قال : أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين** » وجعل أبا أمامة أسعد بن زرارة نقيب النقباء ، ثم قام النقباء واحداً بعد واحد فحمدوا الله وأثنوا عليه

بفضل نعمته ، ومـا أكرمهم به من اتباع نبيـه وإجابة دعوتـه وتحاضوا على نصرته والوفاء بعهده وبيعته ، ثم انصرفوا » . وهذا كلام لا يصح ، لأن الفرق بين دعوة موسى ودعوة محمد جد بعيد .

فمــوسى كان نبياً من أنبياء بنى إسرائيل ، وقـد مضى إلى مصر - وهـو مصرى - لكى يخرج يهود مصر منها ويقودهم إلى أرض بقية بنى إسرائيل وهم الأسباط أى القبائل وعدتهم اثنا عشر سبطاً ، ومن تقاليد بنى إسرائيل أن يكون لكل سبط رئيس أو نقيب ، فإذا صدق خبر نقباء بنى إسرائيل فإن محمداً ﷺ لم يأت ليؤكد معنى الأسباط أى القبائل بل ليزيله ، ولا محل لنا للاقتداء بموسى . .

أما القول بأن الحواريين كانوا كفلاء على غيرهم فغير صحيح ، فقد كان الحواريون من مستضعفى اليهود الذين آمنوا بعيسى عليه السلام ، ولم يكونوا كفلاء على بقية بنى إسرائيل . . .

وإذن فمن أين أتت زيادة تقليد محمد لموسى وعيسى ؟ . .

من أصحابنا أهل العلم ممن تولوا نقل السيرة إلينا على طريقتهم من التقليد . .

لقد بعث الله محمداً صلوات الله عليه منشئاً مبتكراً مجدداً ليتجدد على يديه شباب دين الله الواحد ، « القيم » أى القائم أبد الدهر ، فيأبون إلا أن يجعلوه مقلداً متبعاً . .

ولهذا فإننى بعد أن أفنيت عمراً فى قراءة التفاسير أصبحت أميل إلى أن أفسر القرآن بالقرآن والسنة وأفسر السيرة بالقرآن وصحيح الآثار ومنهج التاريخ .

.. لأن معظم المفسرين يذهبون بنا مذاهب شتى لا تدرى كيف ولم أتوا بها .

وأضرب لك مثلاً واحداً ، فأنت تعلم أن القضية بين العرب وبنى إسرائيل أن الله سبحانه وتعالى اشتق نبينا ـ نبى الإسلام ـ من عترة إسماعيل عليه السلام وإسماعيل هو ابن إبراهيم عليهما السلام من هاجر المصرية وهو الذبيح الذى فداه الله بالكبش العظيم . وقد أعز الله بنى إسماعيل بمحمد وبالإسلام فسادوا الدنيا وأنشأوا ملكاً وحضارة وأمة إسلامية عظيمة كانت شجى فى حلوق بنى إسرائيل ، وهذا هو سر عداوة اليهود جميعاً للعرب والمسلمين .

واليهود أو بنو إسرائيل يقولون إنهم أحفاد إسحاق بن إبراهيم جد الأسباط .

وهم لهذا يرفعون إسحاق على إسماعيل ، ويقولون إنه هو الذبيح الذى اختاره الله وفداه وأما اسماعيل فهو عندهم الطريد فى القفار وقومه هم العرب وهم عند اليهود قيدار أو تدار فيجىء الطبرى فى كتابه الرسل والملوك وينفق نحو عشرين صفحة فى تحقيق الذبيح وينتهى إلى أنه إسحاق لا إسماعيل .

فهل هذا معقول ياقوم .

غفر الله لأبى جعفر محمد بن جرير . . .

* * *

وبايعت الرسول يوم العقبة الثانية امرأتان إحداهما نسيبة بنت كعب بن عمرو بن عوف التى اشتهرت باسم أم عمارة الأنصارية ، والثانية أم منيع أسماء بنت عمرو بن عدى من بنى سلمة من الخزرج .

هل هذه مصادفة ؟ أو أن وجود هاتين الصحابيتين الجليلتين فى هذا الحادث الحاسم كان رمزاً على جانب أساسى من تكوين أمة الإسلام ، لا موضع

للمصادفة هنا فيما نرى فإنه ليس من العادى فى ذلك العصر أن تخرج امرأتان مع قومهما بعد منتصف الليل وتذهبان إلى شعاب الجبال فى أقصى شمال مكة . لتشتركا فى اجتماع كان المفروض من بدء الخليقة إلى ذلك الحين أنه من مشاهد الرجال دون النساء .

لكى تفهم عنى ماأقوله أحدثك عما فعلته نسيبة بنت كعب بن عمرو وهى أم عمارة بعد إسلامها لتثبت للدنيا كلها أن المرأة فى أمة الإسلام الجديدة صنو الرجل وعديلته وقسيمته فى بناء الأمة وتحمل مسئولياتها ودعنا هنا من أن الشرع جعل حظ الرجل مثل حظ الأنثيين فى الميراث ، فهذا شرع لا مدخل لنا إليه والله سبحانه وتعالى أعلم بأسرار شريعته ، ثم إنه أمر يتعلق بالمال ، والمال ليس مقياساً لكل شىء فى حياة الجماعات ، إنما نحن نشهد هنا بناء أمة فنرى النساء فيها إلى جانب الرجال ، يبايعن ويقمن فى بناء الأمة بنصيب يعدل نصيب الرجال .

وتعال ننظر فيما فعلته أم عمارة نسيبة الأنصارية . فى يوم أحد وفى ميدان الجهاد وهو ميدان الشرف والإيمان وفيه توزن وزنها الصحيح أقدار الناس . . .

قال الواقدى إنها خرجت أول النهار إلى ميدان المعركة ومعها إناء ماء لتسقى الجرحى « فقاتلت يومئذ وأبلت بلاء حسناً فجرحت اثنا عشر جرحاً بين طعنة برمح أو ضربة بسيف » .

وقالت أم عمارة « لقد رأيتنى وانكشف الناس عن رسول الله ﷺ فما بقى إلا نفير « لا يتمون عشرة » وأنا وأبنائى وزوجى نذب عنه ، والناس يمرون به منهزمين ، ورآنى رسول الله ﷺ لا ترس معى ، فرأى رجلا موليا معه ترس فقال : ياصاحب الترس الق ترسك إلى من يقاتل ، فألقى ترسه ، فأخذته فجعلت أترس عن رسول الله ﷺ . . فأقبل رجل على فرس فضربنى ، وترست

له فلم يصنع سيفه شيئاً وولى وأضرب عرقوب فرسه فيقع على ظهره ، فجعل رسول الله ﷺ يصيح : ياابن أم عمارة ، أمك . . أمك : قلت : فعاوننى عليه حتى أوردته شعوب .

وقد روى عن عمر بن الخطاب أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يوم أحد يقول : ماالتفت يميناً أو شمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دونى . .

هذا قول رسول الله فى أم عمارة وهو الصادق الأمين وهى شهادة ذات معنى عظيم بالنسبة لبناء الأمة ، هنا فى بناء أمة الإسلام المرأة تحمل نصيباً قدر نصيب الرجل ، فهذا مجتمع جديد إنه مجتمع الإنسان . . والمرأة إنسان كامل فى ميزان الأمة الإسلامية كما أراد لها الله أن تبنى على يد الرسول . . .

فهل نحن نقبل بعد مارأينا من أم عمارة ومانعرف عن أم المؤمنين خديجة وأم المؤمنين عائشة وعن أم المؤمنين أم سلمة ، هل نقبل صحة الحديث الذى يردد ويروى حتى أصبح كأنه حقيقة لا شك فيها : النساء ناقصات عقل ودين ؟ . قد يقبلونه بشروط المحدثين ، ولكننا لا نقبله بمنهج المؤرخين . .

ثم إن رسول الله ﷺ لم يؤثر عنه أنه قال : الرجال كوامل عقل ودين ، وهل يثبت عندنا أن الرجال ـ كل الرجال ـ كوامل عقل ودين حتى يثبت فى ـ فهمنا أن النساء كل النساء نواقص عقل ودين ؟ إن كنت تريد برهاناً آخر عن وضع النساء فى المجتمع الإسلامى الجديد فاقرأ مشهد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى كما يرويه ابن سعد فى طبقاته ، ثم قل لى بعد ذلك إن كانت النساء نواقص عقل ودين .

إن كل كلمة نقرؤها فى أخبار بناء أمة الإسلام إنما هى رمز على مبدأ من مبادىء الأمة الجديدة ، والذى حدث أن الأجيال التى جاءت بعد لم تكن قادرة على الإحساس بروح عصر النبوة ، وترجمت السيرة بحسب مفهومها وتصورها ،

وإلا فهل نصدق مايقوله بن هشام فى صياغته الناقصة المحرفة للسيرة النبوية عن مبايعة أم عمارة وصاحبتها للرسول قال : يزعمون أنهما قد بايعتا ، وكان رسول الله ﷺ لا يصافح النساء إنما كان يأخذ عليهن ، فإذا أقررن قال : اذهبن فقد بايعتكن .

لقد أعطى الإسلام المرأة حقوقها كاملة لكن الرجال سلبوها إياها فى عصور التدهور ، وابن هشام شيخ بصرى مصرى كتب فى عصر بداية التدهور وتوفى سنة ٢١٣ أو ٢١٨ هـ ٨٢٨ ـ ٨٣٣م وفى تلك السنوات بالذات كان الأمين والمأمون ابنا هارون الرشيد يقتل أحدهما الآخر على عرض من عروض الدنيا وهو الخلافة ، وكان أبو إسحاق محمد المعتصم ابن الرشيد أيضاً يسقط العرب ـ بناة الأمة ـ من الديوان .

ولم يكد عهد العقبة الثانية يتم وتوضع الأحجار الأولى فى بناء الأمة حتى أرسل الرسول صاحبه مصعب بن عمير داعياً إلى الله ودينه فى المدينة ويفقه أهلها ويقرئهم القرآن ، ومصعب بن عمير إنسان ورمز معا . .

كان مصعب بن عمير من أبناء سروات مكة ، فهو من عبد الدار « كان أبواه يحبانه وكانت أمه تكسوه أحسن مايكون من الثياب ، وكان أعطر أهل مكة . . . وكان فتى مكة شباباً وجمالاً وسيبيا (أى تيها) كما يقول ابن الأثير فى (أسد الغابة) فلما أسلم تزهد وترك الدنيا وأهمل ثيابه ولم تعد له حياة خارج الإسلام . أسلم والرسول فى دار الأرقم وتنازل عن ماله كله وهاجر إلى الحبشة بدينه ، ثم عاد وهاجر إلى المدينة وكان صاحب راية الرسول ﷺ فى بدر ، ثم استشهد فى أحد . .

واقرأ معى خبر استشهاده الرائع فى موقعة أحد . لقد قاتل وفى يده راية الإسلام حتى قطعت ذراعاه فضمها على الراية حتى تظل عالية ترفرف ، ثم استشهد .

لقد رآه رسول الله ﷺ مسجى على أرض المعركة دون غطاء فتلا قول الله تعالى : ﴿ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَاعَاهَدواْ اللهَ عَلَيهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحبهُ وَمِنهُم مَّن يَنتَظِرُ ، وَمَابَدَّلُواْ تَبدِيلاً** ﴾ (الأحزاب آية ٢٣) .


هذا كان رسول محمد إلى أهل المدينة ولم نعرف فى تاريخ دعوة الإسلام داعياً كان أعظم بركة على الإسلام من مصعب بن عمير : فى بضعة شهور أدخل معظم أهل المدينة فى الإسلام بإيمانه وتفانيه .

وماالعبرة من إرسال الرسول مصعباً إلى المدينة داعياً ؟ العبرة أن الأمة الإسلامية لابد أن يكون لها دعاة على حدودها يمدون بساطها ويزيدون مساحتها ، ويذهبون لذلك حسبة لوجه الله وزهداً فى الدنيا وحباً فى الله ورسوله ، فهل هذه هى فكرتنا اليوم فى الدعوة ؟ .

وهل أمتنا اليوم تشعر بما كان يراه الرسول من وجوب إرسال الدعاة والمصلحين إلى الجماعات الإسلامية الناشئة أو المهددة بالأخطار واختيارهم على أعلى مستوى ، ويذهبون حسبة لله تعالى .

وهل الدعاة اليوم يتخرجون فى معاهدهم ويذهبون إلى مجاهل أفريقية وغينيا الجديدة ودواخل بورينو وإلى جنوبى الفلبيين حيث يقاتل الإسلام عن وجوده . . أو يسارعون فى طلب الوظائف فى بلاد الريال والدرهم والدينار ؟ وهل الدعوة إلى الإسلام هى أن تسحنفر فى الخطب فى حى الحسين أو فى حى السيدة زينب أو تحتسب أجرك عند الله وتتوكل عليه وتسير فى آثار مصعب بن عمير ؟

ألا ترى معى أيها القارىء أننا أحسنا الصنع عندما عدنا بالقافلة إلى نقطة البداية لنسير من جديد ؟



وقامت أمة الإسلام على خطة دقيقة وتوقيت محكم

ومنذ غادر محمد قباء إلى منزله الذى اختاره لنفسه بين بنى مالك بن النجار سار فى عمله قدما كأنه قد وضع خطة محكمة للعمل من زمن بعيد ، فما حانت فرصة العمل حتى مضى لوجهته . كل خطوة تؤدى إلى التى تليها ولا وقت للضياع ، كأنما كان الرسول ﷺ يشعر أن منيته تنتظره على عشر سنوات وبضعة شهور هجرية ، وأنه لابد أن يفرغ من رسالته كاملة قبل ذلك الأجل ، فلم نعرف فى التاريخ رجلاً بلغ إحكامه فى التوفيق ودقته فى التقدير وإقباله على العمل المضنى على خطة واضحة مثل محمد .

عاد اليثربيون إلى مدينتهم فرحين بما آتاهم الله ، وعاد معهم معلمهم ومقرئهم الصادق المتفانى فى الله ورسوله مصعب بن عمير ، وعاد محمد ﷺ إلى داره وقد اطمأن قلبه إلى أنه وجد الجماعة القوية التى ينشىء فيها أمة الإسلام .

ولقد كانت السنوات الثلاث التى انقضت بين موت أبى طالب ثم خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها من أشق مامر على رسول الله ، فقد وقف وحده تقريباً أمام حائط الكفر الهائل ، وكانت وفاة خديجة قد شقت عليه ، فهذه السيدة المباركة رافقته خمس عشرة سنة قبل البعثة كلها سنوات حب ومودة ، وأمن وهدوء ثم عاشت معه تسعاً بعد البعثة كلها تعب وجهد وصبر جميل ، ولكن خديجة لم تشك يوماً ولا هى ضاقت بما تعانى منه إلى آخر حياتها ، وظل محمد يذكر لها ذلك ويرق كلما جاء ذكر خديجة ، وظل فراغها فى نفسه خالياً بقية عمره بعدها .

ولكن محمداً لم يشك لحظة فى نصر الله له وأن الفرج آت لا ريب ، ألم يقل الله له فى سورة الضحى ﴿ **وَلَسَوفَ يعُطِيكَ رَبُّكَ فَتَرضَىٰ** ﴾ فها هو ذا اليوم يعـطيه أجمل العطاء وهاهو ذا اليوم يرضى الرضا كله . وحتى فى أحلك أيام المصاعب كان واثقاً من أن الله سيعطيه وسيرضى . وهل مرت على رسول الله ساعـات هى أقسى من ساعات خروجه من الطائف وقد آذته ثقيف وأغلقت قلوبها دونه ، وأغرت به سفاءها يسبونه ويصيحون به ويرمونه بالحجارة حتى دميت قدمـاه فاوى إلى جدار حديقـة خارج البلد وجلس وخـاطب ربه أجمل خطاب وأعمقه إيماناً وأقوى ثقة فى الله ونصر الله ، لقد قال محيى الدين بن عربى بعـد أن فرغ من « الفتوحات المكية » [كل هذا الذى قلت لا يعدل حرفاً مما خاطب به رسول الله ربه ، ثم يتلو نص الدعاء ويصيح : يامن أشرقت بنور وجهك الظلمات أعطنى قبساً من نور محمد فإنى فى ظلام] . .

قال رسـول الله ﷺ : « **اللهم أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهـوانى على النـاس . ياأرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى . إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك** » .

والعدو الذى يتجهمه هم أهل الطائف .

أما العدو الذى ملكه أمره فهم كفار قريش .

وكانت رياسة قريش قد صارت بعد عبد المطلب إلى ابنه الزبير قليلاً ثم صارت إلى عبد العزى عم محمد أيضاً وهو أبو لهب عدوه وعدو الإسلام .

ولم يستطع محمد دخول مكة عائداً من الطائف إلا فى جوار المطعم بن عدى بعد أن رفض الأخنس بن شريق ، وسهيل بن عمرو أن يجيراه .

وبعد العودة إلى مكة كان الإسراء والمعراج ، وقد أراد الله بهما أن يطمئن فؤاد محمد ، وهل هناك تكريم هو أعلى من الصعود إلى السماء والاقتراب من نور رب العرش والصلاة بالنبيين جميعاً إماماً ؟ .

* * *

ومن بديع صنع الله للإسلام وأمته أن محمداً بعد الطائف عرض دعوته على القبائل خارج مكة دون أن يخطر بباله أن يقصد يثرب .

ذهب إلى بنى عبد الله من كندة فى منازلهم وأتى بنى حنيفة فى منازلهم وبنى عامر بن صعصعة فى ديارهم فلم يستمع أحد منهم إليه .

حتى جاءه أهل يثرب إلى داره وقلوبهم على أكفهم يطلبون دخول الإسلام ، ولم يدخلوا فيه فحسب ، بل عرضوا أن يكونوا هم أمة الإسلام وأن يكون بلدهم مهده .

مامعنى ذلك بالنسبة لموضوعنا وهو قيام أمة الإسلام وبناؤها ؟ معناه أن الأمة هى التى تختار من يتولى أمرها ، ولا يكون من سيتولى الأمر هو الذى يفرض نفسه .

هكذا كان فى تقدير الله لأمة الإسلام وهى أمته .

هى التى تختار لنفسها .

لقد أراد محمد أن يختار أمته ، ولكن الذى حدث هو أن الأمة هى التى اختارته .

وذلك أساس لا ينبغى أن تتخلى عنه أمة الإسلام . إنها هى الأساس ، وهى التى تختار ، ولو كان المختار هو رسول الله .

هكذا قدر الله رب الإسلام وأمة الإسلام .

فأين هذا مما يقوله شيخ مثل ابن جماعة الذى زعم أن الأمة ينبغى أن تخضع لمن يفرض نفسه عليها ولو كان سفاكاً قاتلاً غاصباً .

وأخذ الصحابة يهاجرون إلى المدينة وينزلون على إخوانهم من الأنصار . ولأول مرة فى تاريخ العرب تستقبل جماعة من العرب ناساً غرباء عليها بالترحاب الذى تلقى به أهل المدينة أصحابهم الذين هاجروا إليهم ولكن المجير هنا هو الله سبحانه وتعالى ، وكل أمة الإسلام فى جواره لأنها أمته مادامت سائرة فى طريقه .

وظل محمد فى مكة آمناً فى رعاية الله ، يرى صحابته يهاجرون إلى الأمن ويتبوأون الدار والإيمان وهو لا يشك فى النصر القريب .

ويشاء الله سبحانه أن يزيده أمناً واطمئناناً إلى المصير الذى ينتظره فى مهجره الجديد ، فينزل عليه الآيات التالية من سورة الإسراء وهى من آخر ماأنزل على محمد فى مكة :

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ، إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً ، وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً ، وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِى مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً ، وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ، وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَاهُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً ﴾ . (الإسراء : الآيات ٧٨ ـ ٨٢) .

فانظر كيف يأمر الله رسوله بإقامة الصلاة قبل طلوع الشمس وساعة الغسق ويأمره بصلاة الليل ليطمئن بها قلبه .

ثم انظر كيف يأمره بأن يسأل الله أن يدخله (المهجر الجديد) مدخل صدق قبل أن يسأله الخروج (من مكة) مخرج صدق وجميل أن يأمره الله بأن يسأله صدق المدخل إلى المدينة قبل أن يسأله صدق المخرج من مكة .

ويبشره بأن الحق قد جاء وأن الباطل قد انتهى أمره . وهذه ليست بشارة له وحده بل للبشر أجمعين ، فقد جاء الحق للدنيا كلها ، وزهق الباطل للعالمين أجمعين .

* * *

وأذن الله سبحانه لمحمد رسول الله ﷺ فى أن يهاجر من مكة إلى المدينة ، فخرج من بيته ليلاً فى الخبر المعروف على الأغلب فى اليوم الأول من ربيع الأول السنة الأولى للهجرة . وهذا التاريخ يقابل يوم ١٣ سبتمبر سنة ٦٢٢ ميلادية ، وهو بحسب جداول التقويمات التى لدينا يوم اثنين ، ويقول ابن اسحق إنه خرج من الغار ليلة الاثنين لأربع خلون من ربيع الآخر ، والأقرب إلى القول أنه وأبا بكر خرجا من الغار فى اتجاه المدينة قبيل فجر الرابع من شهر ربيع الأول (على هذا الحساب) لأن الليالى فى حساب العرب تسبق النهار ، وعلة ذلك أن اليوم عندهم ينتهى بغروب الشمس ، وبعد ذلك يبدأ اليوم التالى وليله سابق على نهاره حتى يكتمل اليوم أربعاً وعشرين ساعة عند الغروب التالى . فإذا كان قد دخل الغار بعد نصف ليل غرة ربيع الأول فيكون قد خرج منه مع فجر اليوم الرابع من ربيع الأول وهو يوم الأربعاء ١٦ سبتمبر ٦٢٢ م ، والمراجع تقول إنه

يوم اثنين ، وهذا لا يصح إلا إذا كان رسول الله وصاحبه قد قضيا فى الغار أسبوعا وهو أمر لا يستقيم .

ثم تجىء مشكلة تاريخ الوصول إلى قباء ، فمراجعنا تقول إنه وصل إليها يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول وهو الرابع والعشرون من سبتمبر ٦٢٢ م وهو يوم أربعاء لا يوم اثنين . ثم إن القول بأنه خرج من الغار يوم ٤ ربيع الأول ووصل إلى قباء ١٢ ربيع الأول عسير على القبول ، لأن معناه أنه هو ومن معه قطعوا بحسب وصف الطريق الذى لدينا فوق الأربعمائة والخمسين كيلو مترا فى ثمانية أيام ، أى معدل يزيد على ٥٠ كيلو متراً فى اليوم الواحد ، وهو أمر يكاد يكون مستحيلاً ، اللهم إلا إذا كانا قد سارا ليلاً ونهاراً دون توقف ولم يقل بهذا أحد من الإخباريين ، وإذا كان ولابد من القول بأنه ﷺ وصل قباء فى اليوم الثانى عشر من ربيع الأول (وهو يوم ميلاده كذلك) فلابد أن نصحح تاريخ الخروج من مكة أو تاريخ الخروج من الغار ، وربما كان الأصح أن يقال إن الأول من ربيع الأول للسنة الأولى من الهجرة هو يوم الخروج من الغار ، ويبقى بعد ذلك أن الثانى عشر من ربيع الأول من نفس السنة لا يمكن أن يكون يوم اثنين ، إنما هو يوم أربعاء على ماقلناه .

والمهم لدينا أن رسول الله ﷺ وصاحبه الصديق وصلا قباء مع دليلهما عبد الله بن أرقط أو ابن الأريقط ضحى الثانى عشر من ربيع الأول للسنة الأولى من الهجرة وذلك يوم الأربعاء ٢٤ سبتمبر ٦٢٢ م . وغريب من الأمر أن هذا الدليل الناصح . . ابن أرقط أو ابن الأريقط لم يسلم ومات كافرا فى حين أن سراقة بن جُعْشُم وهو الذى أراد اللحاق برسول الله وقتله أسلم يوم فتح مكة .

ويهمنا هنا مايذكره ابن كثير فى تاريخه من أن رسول الله قبل خروجه من مكة كان قد واعد عبد الرحمن بن عوف على أن يلقاه على مسافة من قباء بثياب جديدة بيض له ولأبى بكر ، وعبد الرحمن بن عوف هاجر قبل محمد ، فلعله أعد الثياب

وعندما بلغت الأخبر أهل قباء أن رسول الله وأبا بكر قد وصلا إلى العرج ونزلا القاعة على ثلاثة مراحل - أى ثلاثة أيام من المدينة انتشر الخبر وفاض . وكان ركب الرسول قد اطمأن وطامن من سيره بعد أن فرغ من ناحية الفرع (بضم الفاء والراء) فقد دخل الركب فى منطقة المدينة ولم يعد هناك خطر من المكيين .

غير أن هذا الاهتمام من رسول الله بأن يدخل المدينة فى ثياب جدد ناصعة البياض لابد أن يستلفت نظرنا ، فإن حكايات الأنبياء كما تروى لنا ترينا إياهم شعثاً فى ثياب خشنة غير ذات هيئة من الصوف ، وهذا مقبول ومعقول ، ولكنه غير معقول ولا مقبول بالنسبة لرسول الله .

ذلك أن الله سبحانه برأ محمداً على صورة تأخذ القلوب فعلاً . وليس من الضرورى أن نتابع هنا صفة محمد كما تتوارد فى النصوص عن على بن أبى طالب وأنس بن مالك وأبى هريرة والبراء بن عازب ومن فى طبقتهم من أجلاء الصحابة ، فهذه ليست صورة إنما هى تصور فقد جمعوا فيها المحاسن كما تصوروها على نحو فيه تكلف حتى لقد قالوا إن عنقه كأنه عنق دمية فى صفاء الفضة وقالوا من لبته (بفتح اللام وهى آخر الرقبة) إلى سرته شعر يجرى كالقضيب ليس فى بطنه ولا صدره شعر غيره إلى آخر هذه التفاصيل التى أملتها المحبة وصدق الولاء ، غير أنك إذا جمعت تفاصيل هذه الملامح كما ترد فى كتب السيرة وخاصة شمائل الترمذى والشروح المتأخرة كالروض الأنف للسهيلى وشرح المواهب اللدنية للزرقانى اختلط عليك الأمر ولم تر شيئاً واضحاً ، ولذلك فقد قلت إن هذا تصور وليس بصورة .

ولكن الثابت أن محمداً كان وسيمًا قسيمًا بهى الصورة وضيئاً ذا هيئة متناسبة جميلة توقع فى قلب من يراه المحبة والهيبة فى آن معا ، وكان وجهه ينطق عن شخصية عظيمة مهيبة حقاً ، وقد زان وجهه شعر غزير كان الرسول شديد الحرص على ترجيله وتهذيبه وإرساله وراء أذنيه .

وقد أكمل رسول الله هذه الصورة البديعة التى برأه الله عليها بعناية دائمة بمظهره دون تكلف أو ترف ، فما عرفنا من ثيابه إلا القطن الأبيض والصوف البسيط ، وكلاهما فى غاية النظافة ، فقد كان ﷺ يغتسل مرة على الأقل فى اليوم غير الوضوء السابغ خمس مرات على الأقل فى اليوم ، وكان يغسل ثوبه بيده مرتين فى اليوم فى غالب الأيام ، وكان حريصا على أن يكون هذا الهندام البسيط دائماً فى أحسن صورة ، وكان لا يطيق وضراً فى بيته حتى كان يكنسه بيده ولا يأكل أو يشرب إلا نظيفاً بل كان لا يأكل شيئاً فيه ثوم أو بصل ، فكان يرده ويقول : « كلوه أنتم ، إنما أنا رجل أناجى » أى أنه يتحدث إلى الناس من قريب ، ولا يحب ريح هذه الشجرة . . أى شجرة الثوم أو البصل .

والسواك وهو فرشة الأسنان الطبيعية لم يستعمله أحد فى التاريخ كما استعمله محمد ، لأنه كان حريصاً أشد الحرص على بهاء أسنانه وطيب نفسه ، لقد كان يقبل عليه حتى خاف بعض الصحابة أن يكون الله سيجعله فرضاً على المسلمين ، وإنه لمن غرائب الأخبار أن آخر شىء طلبه رسول الله فى مرضه وقبل أن يدخل فى غيبوبة الموت هو السواك فناولته إياه عائشة رضى الله عنها فاستن به كأحسن مارأته يستن بسواك ، ثم وضعه ، ووجدت رسول الله يثقل فى حجرى فذهبت أنظر فى وجهه فإذا بصره قد شَخَص وهو يقول : بل الرفيق الأعلى من الجنة » .

هذا كلام عائشة رضى الله عنها .

* * *

لبس محمد ثوبه الجديد بعد أن اغتسل فأحسن الاغتسال ، ثم تقدم ومعه أبو بكر وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن الأريقط ، وأقبل المهاجرون والأنصار يرحبون به ولم يكن الكثيرون قد رأوه ، وتكاثر الناس ، ودخل قباء فى سمت

ووقار فى الضحى ، واستقر فى بيت كلثوم بن الهدم وهو من كبار شيوخ بنى عمرو ابن عوف أصحاب قباء وهم من الأوس وكان هذا الشيخ عزباً لم يتزوج ، وقد نزل لهذا فى بيته غزاب المهاجرين وسمى البيت بيت العزاب .

ولكنه كان يجتمع بالناس فى دار أخرى ، هى دار سعد بن خيثمة وكان من سروات بنى عمرو بن عوف وجدير بالملاحظة أن بنى عمرو بن عوف من الأوس ، كان منهم نفر فى بيعة العقبة ، وسعد بن خيثمة كان نقيباً . ولكن بنى عمرو بن عوف كانوا دائماً موضع قلق لرسول الله ﷺ بعد ذلك ولهذا أطال الرسول المقام فيهم حتى يزيل مافى نفوس بعضهم من ميل إلى الفتن وبنى فى منازلهم أول مسجد بنى فى الإسلام ، وهو المسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم مسجد قباء .

مكث الرسول فى قباء أربعة أيام وهى فى نظر الكثيرين فترة طويلة ، ولكن الحقيقة أنه استوعب خلال هذه الأيام معلومات كثيرة عن الأحوال فى المدينة ، ومن خصائص محمد أنه كان يجيد الإنصات ، وكان يعى ممن يحدثه كل شىء ولهذا لم يكن هناك أعلم منه بالعرب والدنيا من حولهم ، وأن الإنسان ليعجب من دقيق ملاحظاته واتساع معلوماته عن العرب خاصة ، كان يعرفهم قبيلة قبيلة وأين تعيش ومن رؤساؤها ، ومامـوقفهم من الإسلام وماموقفهم من قريش وعلاقاتهم بمن حولهم تقابل ذلك حقيقة كبرى وهى أنه كان قليل الكلام ، فإذا تكلم قصد إلى مايريد رأساً فى أقصر عبارة وأبلغها . كان يفضل السماع على الكلام وما أحب أحداً ـ أيا كان ـ أن يتحدث إليه إلا أعاره سمعه وصبر عليه حتى يقول كل مايريد أن يقول ثم يجيبه بما ينبغى أن يقال .

لهذا لم يغادر ديار بنى عمرو بن عوف إلا بعد أن عرف تماماً ماذا سيعمل وكيف سيعمله ، فى تلك الأيام القليلة عرف محمد أمته وحدثه عمر ومصعب بن الزبير والنقباء حديثاً طويلاً عنها فاستوثق من أمر نفسه وعقلها وتوكل . . .

وقـد نهض محمـد من ديار بنى عمرو بن عوف الأوسيين يوم جمعة وهذا مؤكد ، لأن صلاة الجمعة ستدركه فى منازل بنى سالم بن عوف من الخزرج وهم المعروفون ببنى الحبلى أو بنى سالم الحبلى أو بالحبلى (بضم الحاء فى كل حالة) ، وهم قوم عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين فيما بعد .

ثم سار وهـو على ناقتـه المشهورة المسماة (بالقصواء) . . وبعد أن صلى الجمعة بنى الناس مسجداً فى ذلك الموضع عرف بمسجد رانوناء نسبة إلى وادى رانوناء الذى يمر بمنازل بنى سالم . .

ثم عرض عليه بنو سالم أن يقيم عندهم ، وقالوا عبارة ستتكرر كثيراً فى ذلك المسير التاريخى : أقم عندنا فى العدد والعدة والمنعة أى أقم عندنا ونحن قادرون على أن نفى لك بما عاهدناك عليه فى العقبة الثانية .

* * *

ويكون رد رسول الله : خلوا سبيلها فإنها مأمورة والإشارة هنا إلى القصواء .

ومامعنى : أنها مأمورة ؟

ألسنا جميعاً مأمورين من الله سبحانه فى كل مانفعل ؟

ولماذا نفسرها على أنها مأمورة من الله سبحانه وتعالى ؟ ولماذا لا نفسرها على أنها مأمورة من محمد ، لأنه بعد أن درس أحوال المدينة عرف أين يريد ، فهو لا يريد أن ينزل فى العدد والعدة والمنعة وليس هو برئيس دنيوى يبحث عن القوة إنما هو نبى ورسول وشاهد ومبشر ، وسنراه ينزل فى حيث ينبغى أن ينزل النبى

الشاهد المبشر النذير وأين يكون السراج المنير إلا وسط المدينة حتى يصل نوره إلى أطرافها جميعاً على سواء ؟ .

إلى هناك كان يقصد محمد . .

وهذا ماكان يريده بقوله : خلوا سبيلها فإنها مأمورة . .

لقد كان يريد أن يستقر فى وسط المدينة وسط السهل المحصور بين الحرتين أو اللابتين ولا يريد أن ينزل عند قوم ذوى جرأة على القتال وميل للحرب ، فقد كان يستطيع أن ينزل عند بنى سالم الحبلى أو عند بني بياضة ولكنه عرف أن هؤلاء أيضاً بينهم وبين جيرانهم خصومات وتارات ، ورفض أن ينزل فى منازل بنى ساعدة فهناك سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو وهما زعيمان فيهما تطلع للرياسة وعصبية وضعف عن ضبط النفس ، ولم ينزل كذلك عند بنى الحارث بن الخزرج فقد كان لهم وزن سياسى خفيف فى المدينة وهم قوم سعد بن الربيع وخارجة بن زيد وعبد الله بن رواحه ، ولكنه استقر عند بنى مالك بن النجار دون بنى عدى ابن النجار . فقد كان بنو النجار عموماً هم من أضخم الأحلاف القبلية فى المدينة . وكانت فيهم دماثة وعقل وحكمة وهم قوم أسعد بن زرارة وعمارة بن حزم ومعاذ بن الحارث ونفر آخر كثير ممن ستتجلى مواهبهم فى أمة المدينة وكان أبو أمامة أسعد بن زرارة بالذات أثير على رسول الله ﷺ لأنه كان من السابقين الأولين ممن دخلوا الإسلام من أهل المدينة وهو أول من اتخذ مصلى فى أرضه ، ولولا أنه مات قبل بدر بقليل لكان له شأن عظيم . .

* * *

ويستوقف نظرنا أن ناقة رسول الله ﷺ عندما استقرت فى منازل بنى مالك ابن النجار وجلست ووضعت جِرَانَها فنزل عنها رسول الله ﷺ ، فاحتمل

أبو أيوب خالد بن زيد رحلٍ رسول الله فوضعه فى بيته وقال الرسول : المرء مع رحله كأن الأمر كان مقرراً بين محمد وأصحابه قبل أن يغادر قباء ثم نزل على أبى أيوب . وفى دار أبى أيوب أقام الرسول صلوات الله عليه حتى ابتنيت له غرفة التى أقام فيها بقية عمره فى الركن الجنوبى الشرقى من المسجد .

ويبدو أن رسول الله ﷺ استراح لأسعد بن زرارة سيد بنى مالك بن النجار وقومه بنى مالك بن النجار فقد كان أبو أمامة شاباً ذا همة وعقل وقلب مال قلبه إلى الإسلام منذ العقبة الأولى وأسلم على يد مصعب بن عمير وحضر العقبة الثانية وكان من النقباء وكان معه فى بيعة العقبة تلك أحد عشر رجلاً من قومه من بينهم أبو أيوب خالد بن زيد بن كليب الذى نزل عنده وعمارة بن حزم ، وحضرها معه ستة من بنى عمومتهم بنى الحارث بن الخزرج فيهم سعد بن الربيع وعبد الله بن رواحة الشاعر الذى كان أعظم شعراء الرسول وسيستشهد فى مؤته . .

هنا بين قوم كلهم حب للإسلام وإيمان به نزل الرسول ، ولنلاحظ هنا أن أحدا من المؤرخين لم يذكر فى هذه المناسبة أن بنى النجار كانوا أخوال محمد لأن الخؤولة هذه شىء قديم ولا يكاد أحد إذ ذاك يذكر سلمى بنت عمرو بن زيد ابن لبيد من بنى عدى بن النجار التى تزوجها هاشم بن عبد مناف وأنجب منها أولاداً منهم عبد المطلب جد محمد ، ويثبت لنا بهذا أن محمداً لم ينزل ببنى النجار لأنهم أخواله كما يقولون فهم ليسوا أخواله أصلا . ثم إن سلمى كانت من بنى عدى بن النجار وهؤلاء بنو مالك بن النجار .

نقول هذا لأننا مادمنا نتكلم عن الإسلام وأمته الجديدة فلا محل لعمومة ولا خؤولة ولا قرابة إنما هو الإسلام وأمة الإسلام وقد ظهرت مسألة الخؤولة هذه فيما بعد ابتكرتها الأجيال المتأخرة ، وابتكرت تلك الأجيال أيضاً قصة دخول الرسول المدينة من ثنية الوداع وابتكروا أغنية طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

فإن محمداً دخل المدينة من جنوبها الغربى بتعبير أدق من ناحية قباء ، وثنية الوداع فى شمال المدينة ولكى لا نفجع الناس فى هذه الأسطورة العزيزة عليهم يمكن القول بأن هذه الأنشودة وضعت وأنشدت فى عودة الرسول ﷺ فيما بعد من إحدى غزواته فى الشمال .

وشىء آخر جعل الرسول ﷺ يقرر النزول فى ديار بنى النجار ، وهو أن منازلهم كانت فى وساع من الأرض كانت لهم مزارعهم ونخيلهم وأطامهم أى حصونهم . ولكن كانت هناك فى ديارهم أراض أخرى واسعة بور لا يزرعها أحد ومن ثم لم يكن يملكها أحد . وكان الرسول قد تفاهم مع أهل المدينة ربما فى قباء على أنه له التصرف فى أى أرض بور غير عامرة ، وكان رسول الله فى حاجة إلى هذه الأرض كان يريد أن يجد أرضاً لمن هاجر قبله ومعه وبعده من القرشيين لكى يقيموا لأنفسهم دوراً ويزرعوا أرضاً ، أما هدفه الثانى وهو الأهم فهو إنشاء المسجد . .

والجميل فى سيرة الرسول أننا نراه منذ وطئت قدماه قباء يتصرف كأنه يسير على خطة محكمة وضعها بإحكام من قبل . وعندما جاءت الفرصة سار فى التنفيذ قدما كل خطوة تعقبها خطوة والخطوات تتلاحق وتتكامل وبناء الأمة يسير بترتيب وإحكام وتوقيت دقيق كأنما كان محمد يعلم أنه لم تبق له من سنوات العمر إلا عشر سنوات وبضعة شهور هجرية ولابد له أن يتم رسالته كاملة خلال هذا الأمد القصير فليست هناك ساعة واحدة للضياع وفعلاً : خلال هذه الفترة لم يسكن محمد لحظة من نهار وماكان يصيب من النوم أكثر من ثلاث ساعات أو أربع على الأكثر فى اليوم والليلة وقد حسبتها ألف مرة فى دراستى للسيرة فلم أجده يوماً واحداً نام أكثر من هذا القدر ، ومن نعم الله التى أكرمه به أنه كان سريع النعاس قادراً عليه إذا أراده فإذا نام نام فى عمق فكانت ساعة نومه بساعات . وفى معركة الخندق وفى أثناء الحصار والخطر والبرد والرياح كان لا يكاد ينام بضع

دقائق حتى يوقظه شيء فينهض وينظر الأمر ثم يعود فلا يكاد ظهره يمس الأرض حتى يسمع غطيطه لينهض بعد ذلك مرات عديدة فى الليلة الواحدة . .

* * *

وكان المسجد ضرورة لأن الصلاة عماد الإسلام ومادامت الجماعة قد قامت فلابد لها من مسجد ولابد أن محمداً رأى أثناء رحلته الثانية إلى الشام بتجارة السيدة خديجة كنائس النصارى وبيع اليهود ، ولكنه عندما شرع فى بناء مسجده أنشأه على نحو جديد لم تعرفه معابد أى دين آخر ، ولا يمكن القول بأن مسجد الرسول فى المدينة كان مسجداً بدائياً لأنه كان منذ البداية مسجداً كاملاً وإن كان بسيط الهيئة فقد ضم من أول الأمر العناصر الأساسية فى المساجد وهى بيت الصلاة والصحن والقبلة والمحراب والمنبر ، فهذه هى العناصر الأساسية وماعدا ذلك مما وجد بعد ذلك فعناصر غير أساسية كالمئذنة والقبة والأعمدة والعقود وما إلى ذلك حتى بساطة مسجد الرسول كانت جزءاً من أصالته وكانت متفقة مع روح الاسلام ومعنى الصلاة وقد استوحى الرسول هيئة مسجده من روح الإسلام فالإسلام فى لبابه طريق بين الله وعباده ، وهذا الطريق ينبغى أن يكون مستقيًما مباشراً ، وهل هناك طريق أكثر مباشرة من مساحة من الأرض تنظف وتمهد وتسور أو تحاط بسياج أو خندق كما حدث فى مسجد البصرة لكيلا يوغل فى حرمه أحد وتفرش أرضه بشىء نظيف مثل الحصى الصغير (الزلط) أو الحصر فوقها ، وفى هذه المساحة يتجمع المسلمون لإقامة الصلوات فى أوقات محددة ، وتتجه وجوههم وجهة واحدة تجسيداً لوحدة أمة الإسلام . هكذا أنشأ الرسول مسجده . اختار قطعة من الأرض كانت تستعمل مربداً ، أى موضعاً لتجفيف التمر وكان فى تلك الأرض نبات برى كثير أغلبه الغرْقَد وفيه كذلك ماء مستبخل أى مستنقع ، وكانت فيه قبور جاهلية أى قديمة ، فنظف ذلك كله

ومهـدت الأرض وحفـر أسـاس المسجد على عمق ثلاث أذرع أى متر و ٧٤ سنتيمترا لأن طول الذراع فى المدينة فى العصر النبوى ٥٨ سنتيمترا . وكان هذا الأساس من الحجر ثم أقيم جدار المسجد من اللبن . وجعل جدار القبلة من الحجر فى الغالب وعلى الجدار فى اتجاه بيت المقدس أى إلى الشمال الغربى حدد موضـع المحراب ، أما المنبر فكان درجة من الخشب وربما من اللبن إلى جوار المحراب . . وسقفوا جزءاً من مقدمة المسجد بسقف من سعف وخشب يقوم على جذوع نخل وهذا هو بيت الصلاة ، وكانت مساحة المسجد عندما بنى أول مرة ٨٦ , ٣٢٨٠ متر فهو مسجد كبير ولا بد أن يكون بناؤه قد استغرق شهوراً بخلاف مايفهم من كلام رواتنا ، ونستطيع القول بأن العمل استغرق سبعة شهور على قول وتسعة على قول آخر وهذا هو الأصح وهى المدة التى أقامها الرسول فى بيت أبى أيوب خالد الأنصارى .

وقـد جعلت للمسجـد ثلاثة أبواب واحد فى يمينه وهو الباب الذى كان يدخل منه الرسول ويسمى باب أبى بكر ، وكان فى شرق المسجد ، وباب ثان يسمى باب الرحمة ، وباب ثالث ، ومما يدل على صلابة البناء أن جانبى باب أبى بكر بنيا بالحجر ويسمى جانبا مداخل المساجد بالعضادتين . .

وبعد قيام المسجد مباشرة بنيت غرف للرسول فى الركن الجنوبى الشرقى وانتقل إليها الرسول . .

وبقيام المسجد أصبح للأمة وجود مادى إلى جانب وجودها المعنوى ، فلم يكن المسجد موضعاً للصلاة فحسب إنما كان موضع اجتماع المسلمين للاستماع إلى خطب الرسول إذا دعاهم الداعى إلى ذلك ، وفيه يتلاقون لقراءة القرآن أو لمجرد الأنس بعضهم ببعض أو لسماع الأخبار ، وبانتقال الرسول ﷺ إلى المسجد أصبح للمسجد معنى سياسى أيضا فهنا يقيم رئيس الأمة ونبيها ورسول الله ، من هنا تدبر أمور الجماعة كلها . .

فى أثنـاء بنـاء المسجـد تمت خطوات أخـرى سنتحدث عنها فى أحاديث قادمة . ولكن الذى يهمنا هو أن نرى كيف كانت الأمة تبنى معنوياً ومادياً خطوة خطوة ، ففى ذلك الحين كانت آيات سورة البقرة ثم آل عمران تتنزل على رسول الله ، والبقـرة ـ كما يقول المفسرون ـ سنام القرآن أى قمته وهى سورة طويلة متعددة الموضوعات وفيها عناصر كثيرة من عناصر تكوين الأمة سنشير إليها فى مواضعها ، وكذلك سورة آل عمران ، ومن المحقق أنها أنزلت بعد البقرة وهما معا تسميان الزهراوين أى الزهرتين والتسمية رمز على شجرة الأمة الحية التى كانت تنمو وتعلو رويداً رويداً .

وقبل أن أختم هذا الحديث أشير إلى أسطورة أخرى فإن رواتنا يقولون إن أرض المسجد كانت ملكاً لغلامين يتيمين فى حجر أسعد بن زرارة وقد ساومهما الرسول ودفع لهما ماطلباه وعندما نحقق الأمر نجد أن ذلك غير صحيح فواحد من هذين الغلامين سيشارك فى موقعة بدر . وبدر كانت فى ١٩ رمضان سنة ٢ للهجرة فكيف يشترك واحد من الغلامين فيها وهو يتيم صغير فى حجر أبى أمامة أسعد بن زرارة ؟ ولكن المؤكد أن الرسول اشترى أرض المسجد ودفع ثمنها .

* * *

إننـا نزيل الأسـاطـير وهى أجمل مافى التاريخ ، وقد قال ميشيليه المؤرخ الفرنسى البليغ : إن التاريخ قسمان قسم جميل وهو الأساطير وقسم غير جميل وهو الـوقـائـع وعملنا نحن المؤرخين هو القضاء على النصف الجميل والإبقاء على النصف غير الجميل ويالها من مهمة ثقيلة . .

تربية الأمة بالأسوة الحسنة

(فاسس رسول الله المسجد وأسسوا معه .. وبناه رسول الله ﷺ وأصحابه ، وجعل ينقل الحجارة معهم بنفسه ويقول : اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ...) .

محمد بن سعد عن الواقدى

بقيام مسجد المدينة أصبح لأمة الإسلام وجود مادى ملموس . والمسجد لم يكن مصلى فحسب ، بل كان ملتقى المسلمين ومجمعهم . إنه بيت أسرتهم ، هنا كانوا يصلون ، والصلاة طريق المخلوق إلى الخالق وهنا يتلاقى المسلم والمسلم ليشعرا بالأنس والقوة والمحبة ، لأن المسجد هو بيت الله ، وهو كذلك بيت كل مسلم . إلى هنا كان يفزع المسلمون إذا حزبهم أمر . والمسجد عاصمهم ، قل عاصمتهم ، لأن فيه مقام رسول الله ﷺ ، وبالفعل بمجرد قيام المسجد تحولت المدينة إلى « عاصمة » .. الإسلام لا بالمعنى السياسى فحسب ، بل بالمعنى الدينى الإسلامى ، فهنا تؤدى الصلاة . والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى فهى عاصمة من الضلال . .

لهذا لم يقدم الرسول على إنشاء المسجد شيئاً . منذ اليوم الأول لمقامه فى دار أبى أيوب بدأ التفكير فى إقامة المسجد وعمارته ، ومن الأسبوع الأول تم التفاهم بين الرسول وأمته على أرض المسجد وعمارته ، ثم كان الشروع فى العمل الذى استغرق ـ كما جاء فى ابن سعد عن الواقدى ـ من ربيع الأول سنة ١ للهجرة إلى صفر سنة ٢ للهجرة (سبتمبر ٦٢٢ ـ يوليو ٦٢٣ م) .

وهنـاك حقيقـة أخـرى تتصل بمسجد الرسول لها أهميتها بالنسبة لمبحثنا هذا : هى أن الرسول اشترك فى بنائه بنفسه ، عمل بيده فى البناء . قال ابن إسحـاق فعمـل فيه رسـول ﷺ ليرغب المسلمـين فى العمل فيه ، فعمل فيه المهاجرون والأنصار ودأبوا فيه فقال قائل من المسلمين :

لئـن قعـدنا والنـبى يعـمل فـذاك منـا العمـل المضـلل

وهذا البيت من الشعر يضع يدنا على العبرة من اشتراك الرسول فى العمل فى بناء مسجد الجماعة بيده ، إنها الأسوة الحسنة ، وهذا رجل من المسلمين يقول إننا لو قعدنا عن العمل ورسول الله يعمل فذلك منا خطأ وضلال . .

وإذن فهى الأسوة الحسنة التى أراد الرسول أن تكون سبيله لتربية جماعته . كان إذا أراد من المسلمين أن يعملوا عملاً بدأ هو العمل بنفسه دون أن يصدر أمراً . فإذا رآه الناس تبعوه فيه طواعية واختياراً ومحبة . يجدون فى ذلك شرفاً وقربة . .

ولقـد أكـد الله سبحـانه وتعالى معنى الأسوة الحسنة وجعلها قاعدة دينية أخلاقية قال فى سورة الأحزاب : ﴿ **لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرجو اللهَ وَاليَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً** ﴾ . (الأحزاب : الآية ٢١) .

وسورة التوبة أو براءة هى كما قلنا سورة التقنين والتشريع النهائى للكثير من الأصول التى ينبغى أن يكون عليه كل مسلم وكل جماعة مسلمة . . .

وإذن فالأسوة الحسنة واجب وفرض على كل من ولى أمراً من أمور المسلمين بدلاً من إصدار الأوامر ، ليبدأ من ولاه الله أمر المسلمين فى شىء بنفسه أخلاقياً وعملياً ، لأن الأسوة الحسنة هى أمثل أساليب التربية . .

وحتى فى المغازى لم يكن رسول الله حتى نزلت سورة براءة يصدر أمراً للناس بالخروج ، بل كان يستعد ويتأهب . حتى أبو بكر كان أحياناً لا يعرف أن الرسول خارج إلى غزاة . كان يعلم عن طريق ابنته أم المؤمنين عائشة ، فيسرع ويعد نفسه ، ويخرج الرسول ومن حضر إلى خارج المدينة ، ويعسكر فى موضع يسمى الجرف شمال المدينة وينتشر الخبر ويتلاحق الناس بالرسول ، وهو ينتظرهم يوماً أو بعض يوم ثم ينهض لغزاته بمن حضر . .

لقد قال رسول الله ﷺ : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » . وهذا حق والعبرة من هذا الحديث هى بقيته التى لم يقلها الرسول ولكن نقولها نحن : وأدب محمد أمته فأحسن تأديبها .

لأن الأسوة الحسنة هى تأديب عن طريق إيقاظ الضمير وإذا استيقظ ضمير الجماعة أصبح هو قانونها وشرعتها ومنهاجها فى الحياة . والقرآن كله ، والإسلام كله إيقاظ للضمير والضمير الحى يفتح الطريق إلى الله وإلى الفضائل . .

وماقيمة كل تشريعات الدنيا وعقوبات القوانين مع الضمير الميت . والضمير لفظ حديث غير قرآنى يقابله فى القرآن : القلب والقلوب والصدر والصدور واقرأ معنى قول الله تعالى فى سورة الأنفال : ﴿ **فَاتَّقُواْ الله وَأَصلحُواْ ذَاتَ بَينكُم وَأطيعُواْ الله وَرَسولهُ إن كُنتُم مُّؤمنِينَ ، إنَّمَا المؤمنُونَ الَّذينَ إذَا ذُكرَ الله وَجلَت قُلُوبُهُم وَإِذَا تُليَت عَلَيهم آيَاتُهُ زَادَتهُم إيماناً وَعَلَى رَبهِم يَتَوَكَّلُونَ** ﴾ . (الأنفال الآيتان ١ - ٢) .

وتأمل قوله تعالى فى سورة الحج : ﴿ **أفَلَم يَسيرُواْ فى الأرض فَتَكُونَ لَهُم قُلُوبٌ يَعقلُونَ بهَا أو آذَانٌ يَسمَعُونَ بهَا فإنَهَا لاَ تَعمَى الأبصار وَلكن تَعمَى القُلُوبُ الَّتى فى الصُدور** ﴾ . (الحج : الآية ٤٦) .

أما الذين ماتت ضمائرهم فلم يعودوا يحسنون شيئاً أو يعرفون فرقاً بين خير وشر ، بين فضيلة ورذيلة فحديث القرآن عنهم طويل .

ولكن اقرأ معي تلك الآيـات من سولرة الإسراء : **﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بينكَ وَبَيْنَ الَّذينَ لَايُؤمنونَ بالآخرَة حجَاباً مَّستُوراً ، وَجَعَلنَا عَلَى قُلوبهم أَكِنَّةً أن يَفقَهُوهُ وَفِى ءَاذَنِهِمْ وقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى القُرْءَانِ وَحدَهُ وَلَّوا عَلَى أدبارِهِم نُفُوراً ﴾** . (الإسراء : الآيتان ٤٥ و ٤٦) .

ورواية محمد بن سعد عن شيخه الواقدى فى شأن اشتراك الرسول بالعمل بيده فى المسجد أبلغ من عبارة ابن سعد برواية زياد بن عبد الله البكائى قال : وبناه رسول الله ﷺ وأصحابه وجعل ينقل الحجارة معهم بنفسه ويقول : « **اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة** » .. وتكمل هذا الخبر عبارة وردت عند ابن هشام : قال (ابن إسحاق) يروى خبر دخول عمار بن ياسر على رسول الله أثناء بناء المسجد . قالت أم سلمة زوج النبى ﷺ : « فرأيت رسول الله ﷺ ينفض وفرته بيده (أى شعر رأسه) وكان رجلاً جعداً وهو يقول :

ويح ابن سمية .. فكأن رسول الله كان يعمل فى البناء حتى امتلأ شعر رأسه بالغبار فجعل ينفضه بيده ..

ترى كم تكلف بناء هذا المسجد الضخم ومساحته كما قلنا ٣٢٨٠ متراً ونيف ، لقد كان أساسه على عمق متر وثلاثة أرباع المتر من الحجر ثم رفع سوره باللبن وجعل جانبا بابه الرئيسى من الحجر وأنشىء فيه عريش بيت الصلاة من جذوع النخل وجعلت الصفة فى آخره هذا إلى غرف الرسول ﷺ .

كل ذلك تكلف عشرة دنانير هى ثمن الأرض ، استقرضه الرسول من صاحبه أبى بكر ودفعه ثمناً للأرض ..

والباقى : ثمن الحجر وتنجيره واللبن (بفتح اللام المشددة وكسر الباء) وعمله وجانبا الباب والعريش والصفة وغرف الرسول ؟ هذا كله بنته المحبة بناه الإيمان وتعاون الجماعة .

لقد تكلف بناء المسجد عشرة دنانير فى حساب المال .

ولكن تكاليفه فى حساب القلوب والإيمان ألوف بعد ألوف .

وهذا مانسميه ياأخى القارىء ببركة الإيمان وهى تعدل مال الأرض جميعاً وتزيد . .

ونحن ياأخى نملك الملايين بعد الملايين فلماذا نبنى بالملايين بعد الملايين ؟

لأن البركة معدومة ، والبركة تأتى من الإيمان . والإيمان هو كل شىء فى هذه الحياة . . ولو آمنت أمة الإسلام جيلا بعد جيل لما ذهبت عنها بركة الإيمان ولكانت اليوم أغنى الأمم وخير أمة أخرجت للناس حقاً . ولكانت الأرض كلها اليوم إيماناً وإسلاماً . .

ومانقول هذا مواعظ ولا أمانى ، إنما هى حقيقة ، وانظروا إلى مافعل أجدادكم بالإيمان . لقد فتح المسلمون أيام الرسول وأيام الراشدين نصف الدنيا بدون مال وأين كانت الخزائن التى كان ينفق منها الرسول وأبو بكر وعمر ؟ إنها خزائن القلوب والصدور . . خزائن الإيمان .

وهذه كلها دروس وعظات نتعلمها من قيام أمة الإسلام أيام الرسول . إنها دروس ومواد داخلة فى دستور أمة الإسلام ، والدستور ليس مجرد النصوص التى تكتب إنما أهم مواد الدساتير والقوانين هى التى لا تسطر بالأقلام فى الطروس .

إنما هى التى تنقش فى الصدور بيد الإيمان . .

وفى عالمنا هذا أمة ظللنا نحسدها زماناً على رقيها وقوتها هى بريطانيا رفض أهلها أن يكتبوا دستورهم وفضلوا أن يظل الدستور منقوشاً فى الصدور . أرادوا أن يكون دستورهم هو ضميرهم . . وهذا أبلغ لأنه جعل الدستور الإنجليزى دستور القلوب وقانون الضمير وهذا الدستور وهو غير مكتوب أقوى من ألف دستور مكتوب اليوم فى دول لا يتقيد أصحاب الأمر فيها بأى قانون أو دستور مكتوب أو غير مكتوب .

وأول دولة فى عالمنا الراهن ، دستورها صفحة واحدة ، تناقش رجال التحرير الأمريكيون فيها وكتبه بيده رجل واحد مؤمن بوطنه وبالحرية ، رجل موهوب القلب والعقل هو توماس جيفرسون ، ولا نجد فى هذا الدستور الذى كتبه توماس جيفرسون ووافق عليه أحرار الولايات المتحدة فى ٤ يوليو ١٧٧٦ لا نجد فيه مادة ولا معنى ولا فكرة إلا وهى فى القرآن الكريم والحديث الشريف على أبلغ صورة وأبين منطق ، بل عندنا فى قرآننا مايفضلها ألف مرة ، ولكن قول الله سبحانه حق علينا : ﴿ **فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور** ﴾ وإليك السطور الأولى من دستور الولايات المتحدة أوردها عليك وأنا واثق أنك سترى أن أبلغ منها وأصدق وأشمل ورد فى قرآنك الذى بين يديك . قرآنك الذى لا تكاد تقرأه وإذا قرأته فما أقل ماتعيه :

إن كل البشر قد خلقوا سواسية وإن خالقهم أولاهم حقوقاً معينة لامراء فيها ، وإن بين هذه الحقوق « الحياة » و « الحرية » والسعى إلى السعادة ، وإنه من أجل صون هذه الحقوق تنشأ الحكومات « بين البشر » مستمدة سلطاتها العادلة من قبول المحكومين . وفى نهاية إعلان الدستور تقرأ هذه الجملة البديعة « ولتكن هذه أمة من الناس وبالناس وللناس . . . فهل فى هذا بالنسبة لأمة الإسلام جديد ؟ .

إنه لولا أن يطول هذا المبحث ويتجاوز صبر القارىء لأتيت لك من آيات القرآن ودرر الحديث مايدلك على أن الله فضلنا بخير مافضل به أمة من الأمم فى مبادىء العدل والشورى والتقى ومكارم الأخلاق وكل مايصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، ولو كنا أهلاً للفضل لكنا أهلاً للسعادة التى نطلبها دون أن نجدها .

إلى جانب ذلك كله لدينا دستور كتبه رسول الله ﷺ أو أملى نصه بتعبير أدق ، بعد تشاور مع المسلمين ، دستور بين فيه طبيعة أمة الإسلام وحقيقة تكوينها والقواعد السياسية والاجتماعية والأخلاقية التى تقوم عليها وحدتها ويستقيم عليها أمرها . .

قال ابن إسحاق : وكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار ، وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم ، وشرط لهم واشترط عليهم .

ثم أتى بنص الكتاب كما سنأتى به فيما بعد بتفصيل شاف بإذن الله . .

وذكره - أى الدستور - أبو عبيد القاسم بن سلام بروايتين موجزتين بعض الشىء ، الأولى عن عبد الله بن صالح عن الليث بن سعد عن ابن شهاب الزهرى . والثانية عن حجاج بن أبى جريج - وأبو عبيد (١٤٥ - ٢٢٤ هـ/ ٧٧١ - ٨٣٩م) يعتبر من أوثق رجال الحديث ، وهو من جيل المحدثين العظام الذين جددوا شباب دراسات الفقه والأصول من منتصف القرن الهجرى الثانى إلى منتصف الثالث ، وهو صنو أحمد بن حنبل ويحيى بن معين ومحمد بن إدريس الشافعى ، وهو لا يورد شيئاً إلا عن ثقة وأسانيد متينة . وقد أورد معظم نص هذه الوثيقة . . ابن كثير فى تاريخه ، وهو يسمى عندهم جميعاً « الكتاب » أو الصحيفة . .

أما سبب كتابة هذا الكتاب أو هذه الصحيفة أو الدستور ، فهو أن رسول الله ﷺ عندما هاجر من مكة إلى المدينة هاجر هو ومن سبقه وصاحبه ولحق به

على بيعة شفوية غير مكتوبة ، وهذه البيعة أو العقد أو العهد اتفاق بين محمد ومن دعوه إلى الهجرة إلى بلدهم من رجال الأوس والخزرج ، وهى لا تضم تفاصيل كثيرة بل هى تنص على أن ينتقل الرسول إلى المدينة هو وأصحابه ليعيشوا مع من أسلم من أهل المدينة أحراراً يمارسون شعائر دينهم ويعملون على نشر الإسلام ، وفى مقابل ذلك يتعهد أولئك النفر من أهل المدينة بحماية محمد ودينه وأصحابه واتباع شريعة الإسلام . ويلتزمون بالطاعة لرسول الله فى كل مايتعلق بأحكام الإسلام . .

ولم يكد هذا العقد يتم ويشرع المسلمون فى الهجرة حتى أنزلت آية الإذن للمسلمين الذين أخرجوا من ديارهم (أى المهاجرين) فى القتال :

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ الله عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ، الَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا الله ، وَلَوْلَا دَفْعُ الله النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ الله كَثِيراً ، وَلَيَنصُرَنَّ الله مَن يَنصُرُهُ ، إِنَّ الله لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ، الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِى الأَرْضِ أَقَامُواْ الصَّلَاةَ وَءَاتَوُاْ الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنكَرِ وَلله عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ . (الحج : الآيات ٣٩ ـ ٤١) .

وهذه الآيات كما ترى تأذن للمهاجرين الذين ظلموا وأخرجوا من ديارهم فى أن يقاتلوا ظالميهم ، ولكن الآية لم تقل شيئاً بشأن أهل المدينة أنفسهم فى حالة القتال ، ووعد الله بالنصر أتى للمهاجرين وحدهم دون غيرهم . ثم تبرر الآيات القتال فى سبيل الدّين وتقول : إنه لولا ذلك لهدمت الأديرة التى يتعبد فيها الصالحون وتخربت كنائس النصارى وبيع اليهود ومساجد المسلمين ، وهى المواضع التى يذكر فيها اسم الله كثيرا . . .

ثم تقول الآيات ، إنه عندما يمكن الله لعباده هؤلاء فى الأرض ، فإن عليهم أن يقيموا الصلوات : فى مساجدهم التى سيبنونها ويؤتوا الزكاة ويقيموا

الخير ويدعوا إليه وينصروه وينهوا عما ينكره الدين والخلق الكريم . .

والآن استقر محمد وأصحابه فى المدينة مع إخوانهم من أهل البلد الذين أسلموا وحملوا لقب الأنصار لأنهم نصروا دين الله تعالى . ومنهم مَعاً تكونت أمة الإسـلام ، وأخذت آيات القرآن تتنزل ببقية الأحكام وقواعد الشرع ومكارم الأخلاق ، وكل هذه تنظيمات ينبغى أن تطبق فى أمة يقوم أمرها على ذلك الدين الجديد .

فلابـد إذن من أن تنشـأ الأمـة بصورة واضحة ، ولابد أن يحدد تكوينها وشخصيتها وتبين حقوق أفرادها والتزاماتهم ونوع علاقاتهم بمن يسكنون معهم فى المدينة ممن لم يدخل فى الإسلام ، وممن تدين بدين آخر غير الإسلام وغالبيتهم يهود المدينة . ثم إن الله قد مكن للمؤمنين فى الأرض فكيف ينفذون ماأمرهم الله به من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؟ .

ثم إن المغازى والسرايا بدأت فى أثناء ذلك ، ففى رمضان من السنة الأولى للهجـرة أى بعـد الهجرة بستة شهور ، وقبل تمام المسجد أرسل الرسول أولى سراياه ، وكانت بقيادة حمزة بن عبد المطلب ، وهى سرية سيف البحر أى شاطئه وهـدفها استطلاع المساحة الواقعة بين المدينة وساحل البحر الأحمر حيث يمر طريق التجارة المكية ، وفى رمضان من نفس السنة قام عبيدة بن الحارث ـ وهو المهاجر الوحيد الذى كان أكبر من رسول الله سنا ـ بسرية رابغ لنفس الغرض . .

كذلك اتصلت هجرة الناس من مكة إلى المدينة ، ودخل فى الإسلام رجال من القبائل خارج المدينة ، وبهذا كله تغير الموقف ، وأصبحت بيعة العقبة الثانية فى حاجة إلى إعادة نظر أو إعادة صياغة كما نقول . خاصة أن محمداً تجلى إلى جانب نبوته وهداه وفضائله الكبرى عن قائد رجال ومنظم ورئيس بالغ الحكمة حسن العشرة يفتن النـاس بعقله وحكمته وتواضعه وزهده مع البساطة التامة

والإنسانية الرفيعة ، فتدافع الناس فى الإسلام على يديه تدافعا ، وهذا بدوره أثار غيرة وحسداً وخوفاً عند نفر من زعماء أهل المدينة ممن أحسوا أن سراج محمد المنير يضعهم فى الظل بل الظلام ، ومنهم من صارح بعداوته وكراهته وبعضهم الآخر تظاهر بالإسلام ومضى يدس لمحمد والمسلمين . .

هذا إلى أن اليهود ، وخاصة وحداتهم الثلاث الكبرى . . بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة (وكان هناك يهود غيرهم كثيرون) أحسوا خطر محمد والإسلام عليهم ، فهذا الرسول فعلاً أتى بالحق الذى يعلمونه فى كتبهم ، وهذه آيات سورة البقرة سنام القرآن . . . تتوالى مبينة لهم أن ماجاء به محمد هو الحق ولا حق غيره ، ولكنه ليس من بنى إسرائيل وليس من الأسباط بل هو عربى من أحفاد اسماعيل وهذا عندهم غير مصدق ولا مقبول ، فأنكروا الإسلام إنكاراً شديداً ، وبدت البغضاء فى وجوههم :

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ من أهل الكتَاب لَو يَرُدُونَكُم من بَعدِ إيَمانكُم كُفَاراً حَسَداً من عند أنفُسهم مِّن بَعد مَاتَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُ فاعفُواْ وَاصفَحُواْ حَتىَّ يَأتِىَ الله بِأمرِهِ إنَّ الله عَلَى كُل شَىءٍ قَدِيرٌ ﴾ . (البقرة : الآية ١٠٩) .

وإذن فقد تغير الموقف كله . والأمة الآن فى حاجة إلى ضم صفوفها وإبراز شخصيتها لكى تستطيع مواصلة طريقها وسط العواصف الهوج التى كانت تثور حولها . .

لذلك جعل الرسول ﷺ يجتمع بأصحابه ، ويشاورهم فى الأمر ، يسمع منهم ويقول لهم ويتبادلون الرأى ، وكلما انتهوا إلى شىء يرضون عنه نادى رسول الله ﷺ علياً بن أبى طالب وأملى عليه ماتفق رأيهم عليه ، وهكذا تكون نص الكتاب أو الصحيفة أو الدستور الذى نتحدث عنه . .

وقد درس غيرنا هذه الوثيقة فى الشرق والغرب على السواء ، درسها محمد حميد الله وكتب عنها ، وكتب عنها روبرت برترام سارجانت الأستاذ بجامعة

كيمبردج ، وعقدنا معاً ندوة بحث بشأنها فى جامعة الكويت . .

وتبين لى فى أثناء ذلك أن الوثيقة مشار إليها مرة بعد أخرى فى القرآن الكريم وأشار إليها رسول الله واستند إلى بعض نصوصها فى بعض الأحكام والمناسبات ووجدت ابن سعد يشير إليها فى الطبقات ، وابن حنبل فى مسنده فى مواضع شتى والبخارى فى صحيحه والدارمى وابن ماجه وأبو داود فى سننهم ، والبلاذرى فى أنساب الأشراف وغير ذلك كثير . .

وكلما قرأت هذه الصحيفة تبين لى أننى أمام وثيقة سياسية ذات قدر عظيم ، وأن أصحابنا أهل الفقه كان ينبغى أن يولوها عناية كبرى ويعلموا أن أمامهم هنا خطا سياسياً تنظيمياً كان يمكنهم أن يتخذوه أساساً لتفكير سياسى إسلامى سليم يصحح مسار الأمة كلها إذا هم أولوه من العناية ماأولوا أحاديث أخرى تتصل بموضوعات من العبادات أو المعاملات ، والجواب أن نصها الكامل لم يصل إليهم بالطرق التى كان أهل الحديث يشترطونها لقبول الأحاديث وهى طرق الإسناد بأنواعه المختلفة . .

ولكن كيف وصل النص الكامل لهذه الوثيقة إلى محمد بن إسحاق بينما وصلت إلى غيره من أصحاب الصحاح والسنن والمسانيد فى صور مختصرة ، أو مجرد مقتبسات منها أو إشارات إليها ، وهذا هو السبب فى أنهم لم يقدروها حق قدرها ولم تتكشف لهم حقائقها التى سنبينها فى هذا البحث . .

وسألت نفسى : ولكن كيف استطردوا عنها وهى أمامهم فى سيرة ابن إسحاق ، وكانت هذه السيرة فى يد كل عالم مسلم إلى القرن السابع أو الثامن الهجرى ، ثم اختفت إذ حلت محلها سيرة ابن هشام ، فلم تبق منها إلا نسخ قليلة لم نعثر على واحدة كاملة منها إلى الآن ، وبقيت لدينا منها فقرات ، ونقول فى كتب شتى ذلك أن محمداً بن إسحاق بن يسار المطلبى صاحب السيرة كان

على خلاف مع فقهاء عصره وخاصة مالك بن أنس ، فقد كان مالك أكبر شيوخ الحديث حتى كان يسمى أمير المؤمنين فى الحديث .

وكان تلاميذه يتعصبون له تعصباً شديداً ـ شأن التلاميذ مع شيوخهم فى تلك العصور ـ وعندما سمع مالك أن ابن إسحاق يقول أنا « بيطار السيرة » . . أى أنه طبيبها وأستاذها الأكبر أنكر مالك ذلك ، ومازال بابن إسحاق حتى أخرجه من المدينة ، فمضى إلى بغداد واتصل بالخلفاء وفرغ من سيرته فى بغداد واشتهر أمرها بين الناس .


وكان محمد بن إسحاق هاشمى الميول . كان يحب أهل البيت ، وكان شديد الاتصال بكبارهم وخاصة عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب والإمام جعفر الصادق ، ولهذا سمى بمحمد بن إسحاق بن يسار المطلبى . .

ولم تكن هذه الوثيقة قد كتبت مرة واحدة ، بل كتبت على أجزاء ، كانت المشاورات بين محمد وأصحابه متصلة ، كلما تطورت الأحوال وتوالت الأحداث وتشاور الرسول مع أصحابه وقرروا مايرونه ـ وأثبته على بن أبى طالب فى صحف أو ورقات واحتفظ بها فى قراب سيفه ، وكانت تلك ومازالت وسيلة حفظ الوثائق الهامة عند العرب : يضعونها فى قراب السيف أو الخنجر أو فى كيس جلد معلق فيه . .

وهذه الأوراق ورثها من أبناء على بن أبى طالب ابنه الحسن ثم حفيده الحسن بن الحسن ، ثم ابن هذا عبد الله وانتسخ الإمام جعفر الصادق لنفسه نسخة منها ، ولسنا نعرف إن كانت النسخة التى أثبتها ابن إسحاق فى سيرته ، ثم ابن هشام فى إعادة صياغته للسيرة هى نسخة عبد الله بن الحسن بن الحسن أو نسخة جعفر الصادق . .

أما أهل الحديث فلم يصل إليهم النص الكامل ، إنما وصلتهم منها صور موجزة أكبرها مانجده فى كتاب الأموال لأبى عبيد القاسم بن سلام ، ونظرا لموقف أهل الحديث عامة من ابن إسحاق فإن أحداً منهم لم ينقل عنه النص كاملا واكتفى كل منهم بما وصل إليه ، ثم إن منهجهم فى الرواية كان يعتمد أساساً على السند أو سلسلة الرواة .

ونص ابن إسحاق ليس له سند ، فهو من إملاء الرسول ﷺ إلى على بن أبى طالب ، حقاً إن علياً بن أبى طالب قرر أنه لم يكتب عن رسول الله إلا بعض القرآن « ومافى هذه الصحيفة » كما قال . إلا أن هذا لم يكف أهل الحديث المدققين المحققين ، فظلت عندهم قطعاً وإشارات لا يتكون منها نص متصل يصلح أن يكون أساساً لدراسة شاملة أو أساساً لاستخراج أحكام . وكانت خسارتنا بذلك خسارة كبرى . .



لا قيام لأمة صالحة بغير قانون

بدأ رسول الله » مشاوراته مع رجال الأمة لوضع « الصحيفة » أو « القانون الأساسى » لأمة الإسلام أثناء بناء المسجد ، أى بعد شهرين أو ثلاثة من استقراره فى المدينة . وكانت السرايا الأولى قد خرجت ، فبعد سريتى « سيف البحر » و « رابغ » اللتين ذكرناهما . خرجت سرية « الخزار » بقيادة سعد بن أبى وقاص فى ذى القعدة سنة ١ للهجرة ـ مايو ٦٢٣ ـ وهى سرية بعيدة المدى ، وصلت إلى منتصف المسافة بين المدينة ومكة تقريباً ، لأن رسول الله كان يسير فى عمله على خطة دقيقة محكمة ، فقد سيطرت المدينة بسريتى « سيف البحر » و « رابغ » على طريق التجارة المكية بين المدينة والبحر .

وجاءت سرية « الخزار » فبسطت سلطان المدينة على قبائل كبيرة كانت فى مضى إما فى حلف قريش وإما فى خوف منها ، مثل غفار وجهينة وخزاعة ، فأصبحت هذه القبائل ومنازلها الواسعة غير آمنة بالنسبة لقريش ، وبعد ثلاثة أشهر من « الخزار » سيخرج محمد ﷺ بنفسه بغزوة بواط (بضم الباء) وحالف كل القبائل التى كانت تسكن على طريق التجارة الفرعى الذى يمر بإقليمين من أغنى أقاليم الحجاز وهما العرج (بفتح العين وسكون الراء) والفرع (بضم الفاء والراء) (صفر سنة ٢ للهجرة ـ أغسطس ٦٢٣ م) .

ومعنى ذلك أن جماعة الإسلام فى المدينة كانت تخطو خطوات سريعة واسعة نحو القوة الدينية والاجتماعية والسياسية ، فهل يظل الأنصار بعيدين عن ذلك كله ، وزعماؤهم فيما نعلم كانوا رجالاً عظاماً على إخلاص بالغ للإسلام واستعداد عظيم للمشاركة فى بناء أمته ؟ . .

هل كان من الممكن أن يحدث هذا كله ورجال من أمثال أسعد بن زرارة ومعاذ بن جبل ومعاذ بن الحارث وعبد الله بن رواحة وبشير بن سعد وأمية بن النعمان بن بشير ورافع بن مالك بن العجلان وبشر بن البراء بن معرور ومعاذ بن عمرو بن الجموح وثابت بن الجزع وغيرهم من النقباء وشباب الأنصار ، هل كان من الممكن أن يظل هؤلاء جميعاً بعيدين عن تلك المعركة الكبرى والتطور الشامل مع مانعرف عنهم من ملكات وقدرات وإخلاص عظيم ؟ .

إن كل واحد ممن ذكرت وعشرات غيرهم سيكتبون صفحات بعد صفحات من أنصع ماعرف تاريخ البشر ، فكيف يظلون فى موقف المشاهدين ورسول الله بين أظهرهم يبنى أمة الإسلام ومجدها فى دأب وصبر يروعان النفس ؟ .

ولو أراد رسول الله ﷺ لأمرهم بالخروج فى المغازى وإنفاق النفس والمال ، ولو أمرهم لبادروا إلى تنفيذ ماطلب ، ولكنه كان كما رأينا يشعر شعوراً عميقاً بأنه يبنى أمة الإسلام ، وهو نبيها ورسولها وداع إلى الله بإذنه فيها وهو السراج المنير ، أى هو القدوة والأسوة ، فكل تصرف يتصرفه سيصبح قاعدة وأسوة ، وأمة الإسلام ليست كغيرها من الأمم ، إنها خير أمة أخرجت للناس ؛ وينبغى أن تظل كذلك .

وهو صلى الله عليه وسلم لم يكن يبنى دولة ، لأن الدولة قوة سياسية تجرى الأمور فيها ـ بحسب مفهوم الجاهلية ـ أى ماقبل الإسلام ـ على رئيس يأمر وينهى ومرءوسين يطيعون ، على سادة يسوسون الناس كما يسوس الراعى

غنمه ، أى يتصرف فيها كما يريد ، إنما هو كان يبنى أمة على الإيمان والاقتناع والشورى والتراضى والتساوى أو « السوية » كما قال أبو بكر ، وهو أكبرمن تلقى درس الأسـوة الحسنة من رسول الله ووعاه ، ولا عجب أنه الخليفة الوحيد فى تاريخ الإسلام منذ كان الإسلام ، الذى انتخب انتخاباً حراً فى اجتماع علنى مفتوح حضره من شاء من المسلمين ، وأبدى كل إنسان رأيه فيه حتى استقر الأمر لأبى بكر عن رضا واقتناع وطواعية من كل الناس .

* * *

هذا كان رسول الله دقيقاً جداً فى كل خطوة يخطوها ، فقد كان يعلم أن كل كلمة منه ستصبح سُنَّة أى طريقاً يتبعه الناس . كان يتحرى أن يكون تصرفه قائمًا على الإسلام نابعاً من القرآن ، يقصد فيه أولاً إلى ضرب الأسوة الحسنة للناس .

ولقد ذكرنا أمثلة من ذلك فى حديثنا الماضى ، ونضيف إلى هذا شاهدين صغيرين . أولهما ماقاله خادمه وصاحبه أنس بن مالك من أن رسول الله ﷺ لم يرفـع عليه أو على أحـد ممن حوله صوتاً ولا يداً ، بل كان دائمًا رفيقاً بالناس متسامحاً ـ دون تفريط ـ ملتمساً لهم العذر حتى إذا أخطأوا .

ولقد سها بلال بن رباح ذات مرة عن أن يوقظ الرسول ﷺ لصلاة الفجر ، فلمَّا كَلمَهُ الرسول فى ذلك فى رفق كان جواب بلال خشناً بعض الشىء ، قال : « أنام عينى الذى أنام عينك » فما رد الرسول عليه بكلمة ، بل أخذها على مأخذ الطيبة وحسن النية ، وابتسم وطلب إليه أن يعجل بالأذان .

والمثل الثانى ماحكته السيدة عائشة من أن رسول الله ﷺ لم يشتهِ فى حياته طعاماً ، إنما كان شأنه أن يأكل ماحضر دون أى تكلف ، فإذا كان فى البيت لحم أكل اللحم ، وإن لم يكن فيه إلا خبز الشعير والخل والزيت أكل خبز الشعير بالزيت والخل ، وذلك حتى لا يشق على أهله . وهل تظن أن رسول الله لم يشته فى حياته طعاماً ؟ بلى ، كان يشتهيه ، فهو بشر فى كل مايتصل بالبشر ، ولكنه كان يضرب المثـل ويقدم الأسوة الحسنة ، وكأنه ﷺ أراد أن يقول للرجال : لا تشقـوا على أهـل بيتكم ، وكـونوا معهـم على الحسنى : لا أمر ولا تكليف ولا مشقة ، بل يكون الرجل فى بيته القدوة فى الطيبة والتسامح والقناعة وحسن الخلق والعشرة .

وتلك هى الأسوة الحسنة .

فهل وعاها المسلمون ؟

وهل يذكر واحد من المسلمين أن رسول الله ﷺ لم يطلق امرأة فى حياته قط ، لقـد أحـل الله الـطلاق ، وهـذا هو القرآن ولكن الرسول لم يطلق مرة واحـدة ، وتلك هى السنـة فى تطبيق شريعـة الإسـلام على أحسن مايكـون التطبيق ، فهل أدرك المسلمون ذلك وطبقوه ؟ .

لقد كان رسول الله يعرف أن الطلاق ضرورة يتطلبها صلاح الكون ، ولهذا أحله الله ، وجاء رسول الله عند التطبيق فضرب لنا المثل الأعلى فى الصبر على متاعب الزوجية ، ولقد بلغ من غضبه يوماً أن اعتزل كل نسائه ـ دون طلاق ـ وأتـاه عمر فطلب إليه أن يطلق نساءه كلهن ويتزوج غيرهن ، ولكن الرسول رفض وأمسـك عليه نساءه حتى جاء أمر الله بإرجاء بعض نسائه اللاتى كن يغضبنه ، ففعل ولم يطلق منهن واحدة .

ولماذا لم يطلق الرسول ؟ لأنه كان يعرف أن الطلاق هدم للأسرة وإذلال للمـرأة وتضييع للأولاد ، ومن ثم فلاينبغى اللجـوء إليه إلا إذا كان استمرار الزوجية على بغض وتنافر هدماً للأسرة وشقاء للزوجين وإفساداً للأولاد ؟ .

فهل تبع المسلمون هذه السنة ؟ .

افتح أى كتاب من كتب الفقه وتعجب من التيسيرات التى أباحها الفقهاء فى موضوع الطلاق حتى أضبح الزواج فى نظرهم متعة للرجل وحده ، فإذا لم يجد المتعة طلق وأذل الزوجة ، وشرد الأولاد ، ولا بأس عليه فى ذلك مادام يؤدى نفقة الزوجة ـ وماأقلها وماأقصر مدتها ـ ومؤخر الصداق . تأمل معى ذلك تفهم لماذا لم تظل أمة الإسلام خير أمة أخرجت للناس ، ولو أنها اتبعت أسوة الرسول فعلاً لكانت إلى أبد الدهر خير أمة أخرجت للناس .

* * *

لم تعد بيعة العقبة الثانية إذن كافية لتنظيم أمور الأمة التى كانت تتطور طورا سريعا ، وتسير خطوة خطوة نحو الغاية التى رسمها الله سبحانه لرسوله ، ومضى رسوله يسعى لتحقيقها على أحسن مايكون التحقيق .

كان لابـد من أســاس تشريعى جديد يقـوم على الشـورى والـتراضى والاقتناع ، ولا يقوم قط على الأمر والتسلط والتحكم ، فهذه أمة الإسلام وأمة الإنسان الحر الذى يشعر أنه عضو فى جماعة حرة خيرة يقوم أمرها على التراضى والتشاور والاقتناع ، وهدفها خدمة الجماعة كلها والتساوى فى الحقوق والواجبات بين أفرادها جميعاً .

لهذا . . فعنـدمـا أحس الرسول أن أصحابه من أهل المدينة يريدون أن يشاركوا فى ذلك العمل العظيم الذى بدأه وسار فيه ، شرع فى التشاور معهم ومع بقية أصحابه فى وضع أساس قانونى أو قل شرعى أو تشريعى لبناء الأمة الجديدة .

* * *

ثم إن النجاح الباهر الذى حققته أمة الإسلام فى الأمد القصير أثار الحسد والخوف والحقد فى قلوب الكثيرين من أهل المدينة الذين لم يتنبهوا أول الأمر إلى أهمية أمة الإسلام التى قامت فى بلدهم . . والتغيير البعيد المدى الذى كان لابد أن يحدثه قيام هذه الأمة فى تكوين مجتمع المدينة ونظامه ومسئوليات أهله .

فقـد كان فى المدينة قبل مجىء الرسول وأصحابه ناس لهم زعامة ورياسة ومكانة . وكانوا يحسبون أن مجىء محمد وأصحابه لن يؤثر فى هذه الرياسة وتلك المكانة ، ومنهم من أسلم بشفتيه دون قلبه حاسباً أن الإسلام كلمة تقال وشرف يناله الإنسان دون أن يتحمل فى سبيله مشقة .

وبعضهم ظل على كفره أو على دينه السابق ظناً منه أن هذه جماعة صغيرة تلتف حول نبيها وتقوم بعباداتها وستظل صغيرة مقتصرة على أصحابها أبداً ، فإذا بهم يفاجأون أن هذه الدعوة ليست كلمة تقال أو رتبة جاه تنال دون مقابل من تعب وجهد وتضحية ، إنما هى دعوة عامة لتغيير نظام المدينة كلها أولا ثم الحجاز كله بعد ذلك ، وهاهى ذى أعداد المسلمين تتزايد يوماً بعد يوم ، ويظهر من شباب أهل المدينة ورجالها الذين كانوا من قبل أغماراً . . رجال جدد صاغهم الإسـلام صياغـة جديدة ، فأصبحـوا مجاهـدين وقادة وأصحاب رأى ، وهم ملتفون حول نبيهم يتلقون منه آيات القرآن ويعملون بها ويتبعون سنته المثلى .

فأخذت الغيرة تأكل قلوبهم وشملهم الخوف ، ومنهم من وجد السلامة ـ أو أحس أنه وجدها ـ فى التظاهر بالإسلام والتقرب من رسول الله . ومنهم من استمسك ـ مع الإسلام أو بدونه ـ بأهداب زعامته المولية . فظهرت معارضة قوية وخطرة بعضها معلن وبعضها مستور . وبدأ هؤلاء جميعاً يهاجمون الأمة ويكيدون لها ولرسولها ، فكان لابد من حماية الأمة بتحديد معالمها وإظهار شخصيتها وبيان من منها ومن ليس منها ، ومن يحالفها أو يعاهدها أو يعاندها ومن يعاديها . وكان لابد كذلك من بيان حقوق رجال الأمة ـ أفراداً وجماعات ـ وواجباتهم .

بعبارة واحدة نستعيرها من مفهومات عصرنا : كان لابد من إعلان قيام الأمة ووضع شريعتها أو دستورها وتحديد الالتزامات المعنوية والمادية التى يتطلبها الدخول فى الأمة حتى يدخل فيها من يريد الدخول على بينة . وحتى يعلم أنه بدخوله هذا يدخل فى أمة وعهد وعقد ، بل يدخل فى عصر جديد من حياته لا علاقة له بما مضى من عمره .

ولست أقول هذا على سبيل الإنشاء أو الاسترسال مع التأمل ، فهذا الذى نكتبه إنما هو تاريخ للإسلام جديد يقوم على منهج فى البحث والاستقراء جديد . وقد سبق أن رأينا أن أمة الإسلام قد جرفتها الحوادث من منتصف العصر الراشدى وحملتها فى تيار جاهلى لا يتفق مع طبيعة الإسلام وبناء أمته وغايات هذه الأمة ، فدخلنا فى عصور « الخلافة ـ الملك » التى حولت أمة الإسلام إلى دولة دنيوية من طراز الدول السابقة على الإسلام ، أى من طراز الدول التى جاء الإسلام لكى يزيلها ويحرر الناس من ربقتها ، ويدخلها فى عصر الأمة الحرة المؤمنة التى تقوم على الإنسان الحر الكريم المحترم الذى يقوم بالتزاماته نحو الأمة ، لأنه إنسان مؤمن حر كريم محترم لا رعية لملك مستبد أو طاغية غاشم .

ومن غريب الأمر أن الفكر السياسى الإسلامى كله انحصر فى موضوع « الخلافة الملكية » هذا . من يستحقها ومن لا يستحقها . . وكيف يستطيع « الخليفة ـ الملك » أن يكون رءوفاً رحيماً برعيته ، وماالذى يصلح السلطان ومـاالـذى يفسده ومإلى هذا من المباحث الفرعية البعيدة جداً عن طبيعة أمة الإسلام وغاياتها .

ونحن لا نريد بهذا أن نقول : إن الخلافة ليست من الإسلام ، أو أن الملك يتعارض مع الإسلام ، فإن الخلافة أو الملك أو السلطنة وما إليها صور شكلية لممارسة تنظيم أمور الأمة ، فالإسلام لا ينكر الخلافة ولا ينكر الملك أو الإمارة ، فهذه كلها أشكال تنظيمية إذا ارتضتها الأمة واختارتها لم يكن بها بأس ، ولكنها تظل كما قلت تنظيمات شكلية . . للأمة أن تصوغها كيف تشاء .

أما المهم فهو الأمة الحرة الكريمة المؤمنة المتحدة فى المبادىء والغايات الملتفة حول القرآن ، المؤمنة بالإسلام إيماناً صحيحاً ، ولا أقول هنا « الملتفة حول راية القرآن » أو السائرة تحت ظلال القرآن ، فهذه كلها تعبيرات بلاغية ووهمية ، لأن الناس قد يسيرون وراء راية لا يفهمون من أمرها شيئا ، وقد يستظلون بالقرآن دون أن يفهموه أو يعملوا به ، إذ أن المهم والأساس هنا هو أن نكون نحن القرآن نفسه ، أن نكون نحن السنة بنفسها وروحها .

أما أن يكون الإسلام مجرد راية نرفعها أو ظلال نسير تحتها فكلام لا معنى له ، بل هو تضليل واضح ، فالقرآن ليس راية والسنة ليست ظلالاً . إنما القرآن والسنة حياة ينبغى أن نعيشها فى عمق كما عاشها الرسول ﷺ وصحبه ، ولأنهم عاشوها فى عمق فقد استطاعوا أن ينشئوا للإنسانية كلها عصراً جديداً دخلت فيه أمم بعد أمم .

وكان من الممكن أن يظل هذا العصر الجديد جديداً كل يوم لو أننا عشنا القرآن والسنة حقاً ولم نجعل القرآن راية والسنة ظلالاً

ألا تذكر قول السيدة عائشة رضى الله عنها أن رسول الله كان خلقه القرآن ؟ فهذا هو الذى أريد أن أقوله .

ويحاول بعض قدامى المؤرخين أن يصوروا لنا أسباب نفاق المنافقين أو كراهة بعض أعداء الإسلام للإسلام فى أول عهده بالمدينة ، بالقول ـ مثلاً ـ بأن أهل المدينة كانوا ينظمون الخرز ليصنعوا منه تاجاً يتوجون به عبد الله بن أبىّ بن سلول ، فلما جاء محمد إلى المدينة بالإسلام وقف ذلك كله ، فحقد عبد الله بن أبىّ بن سلول على الإسلام والرسول والمسلمين ، وهذا كلام ساذج .

وعبد الله بن أبى بن سلول كان قبل الإسلام أقل من ذلك بكثير ، ثم : منذ متى كانت العرب فى الحجاز تتوج على نفسها رجلاً ؟ لقد فكر فى ذلك مرة عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى ، وكان قد تنصر ، وداخل رجال الروم فى أن يكون فى مكة بمنزلة أمراء الغساسنة ، فما كاد يعود إلى مكة ويسمع الناس بدعوته حتى قام عليه أهل قبيلته نفسها برياسة ابن عمه الأسود بن المطلب ، فهرب عثمان إلى الشام ، وحاول إيذاء القرشيين ، فما زالوا به حتى سجنه رجال دولة الروم ومات فى السجن .

والحقيقة أن نجاح دعوة الإسلام ، وتوفيق محمد العظيم فى بناء الأمة وقيادتها أثار الغيرة والحسد فى قلوب من كانت لهم رياسة ومكانة يدلون بها على الناس ، فلما أزالها الإسلام حقدوا عليه وسعوا فى الإضرار به وبجماعته ، وكان هذا من العوامل التى جعلت محمد ﷺ يجتهد فى التشاور مع أهل أمته فى وضع قانونها لحمايتها وإظهار شخصيتها والنص على أن هذه هى أمة الإنسان المؤمن الحر الكريم الذى يعرف ماله وماعليه ، فيأخذ ماله ولا زيادة ، ويؤدى ماعليه ، وإذا أراد الزيادة زاد ، وكل شىء بثوابه وحسابه فى شرعة الإسلام .

وكان أشد الناس خوفاً من نجاح أمة الإسلام هم يهود المدينة ، فقد كانوا قبل مجىء الرسول يزهون على أهل المدينة بأنهم أهل كتاب ، وأنهم أمة الله ،

وأن الله ناصرهم بدينهم لأنهم أمته ، وأن النصر سيأتيهم كما هو ثابت فى شرعتهم على يد نبى يبعث كما زعموا من أصلابهم ومن أسباطهم تتحقق على يديه البشرى بنصر أمة الله على من عداها .

وكانوا إلى جانب ذلك يكتبون ويقرأون ويمارسون أعمالاً رئيسية مثل الزراعة والصناعة ، وجماعة منهم بالذات هم بنو قينقاع احتكروا الحدادة والصباغة ، وأهم عمل فى الحدادة هو صناعة السلاح من سيوف ودروع ، وهذا أساس عظيم من أسس القوة . ولهذا فإن اسمهم قين (وهو الحداد) والقيون : أى أهل الحدادة .

وأمر هؤلاء اليهود عجب . فنحن نقرأ الكثير عن تمسكهم بعقيدتهم واعتزازهم بها ، ومع ذلك فلا نجدهم قد أقاموا لأنفسهم فى المدينة بيعة أى معبداً ، ولا اتخذوا كاهناً ولا كان فيهم رئيس دينى مشهود له بالعلم والجاه فى قومه .

والذى نعلمه أن كل جماعة يهودية فى الدنيا أيا كان حجمها لابد لها من بيعة فيها تابوت أى خزانة كتب العقيدة وذخائر البيعة أو الكنيس ، ولابد لها من ربن أو ربان أو ربى (بفتح الراء وكسرها) وهو الكاهن .

ولكن يهود المدينة لم يكن لديهم من ذلك كله شىء . إنما هم يوصفون بأنهم يهود وأهل كتاب فحسب . وعندما استولى المسلمون على ديارهم وأراضيهم لم يجدوا فيها بيعة ولا مصلى ولا كتباً دينية . وقد أتانا السمهودى ببيان شاف عن ديارهم وآطامهم ولكنه لم يذكر لهم كنيساً واحداً ، وأتانا البلاذرى فى أنساب الأشراف ببيان « أسماء عظماء يهود » فلا نجد فيهم كاهناً ، إنما يوصف بعض رجالهم بأنهم كانوا من أحبارهم .

ويهود المدينة فيما يقال كانوا أول الأمر أصحاب السهل الذى نشأت فيه المدينة ، ومن كلام السمهودى نفهم أنه عندما جاء الإسلام كان بنو النضير

وبنو قريظة وبنو قينقاع يملكون جنوب شرقى السهل كله ، وكانت أراضيهم أخصب أراضى المدينة وأوفرها زروعاً ، وكانوا يملكون عند الهجرة ٥٩ أطـما (بضم الهمزة والطاء وهو الحصن) فى حين أن بقية قبائل المدينة مابين أوس وخزرج كانوا لا يملكون إلا ٣٠ أُطُمًا . وربما دلت كثرة حصونهم على أنهم كانوا أضعف من الأوس والخزرج عسكرياً ، ولهذا احتاجوا إلى الآطام الكثيرة .

وعندما نزل الأوس والخزرج سهل المدينة نزلوا فى حلف اليهود وجوارهم ، لأن اليهود كانوا أول من عمر السهل . وكانت جماعاتهم الثلاث الكبرى يهودية أصلاً ، هاجرت إلى الحجاز من فلسطين . ولكن بطونا من القبائل العربية أخذت اليهودية ، ويذكر السمهودى من هؤلاء بنى مرثد وبنى معاوية وبنى جذماء ، وبنى نجيشة وبنى زعورا وبنى ثعلبة .

ولكن هذه البطون لم تكن أوسية أو خزرجية من ناحية الأصل ، فبنو مرثد ينتسبون إلى بلى بن إلحاف بن قضاعة ، وبنو معاوية كانوا بطناً من سليم بن منصور ، أما بنو جذماء وبنو النجيش فكانوا من مهاجرة عرب اليمن ، وبنو زعورا وبنو ثعلبة كانوا بطنين من غسان من عرب الشام .

وكانت هناك بطون أخرى من اليهود داخلة فى حلف المجموعات اليهودية الثلاث الكبرى مثل بنى هلال . وهم عرب حلفاء لبنى قريظة . وعندما نزل الأوس والخرج السهل كانوا ضعافاً فدخلوا فى حلف اليهود ، ثم تكاثروا واستقووا مع الزمن .

وكان بنو ثعلبة أول الأمر أقوى قبائل اليهود ، ومنهم كان الفطيون الذى يقال إنه أقر الأوس والخزرج فى سهل المدينة على أن يمارس معهم تقليداً عرفه يهود الشام وهو تقليد افتضاض كل عروس ، فلمّا استقوى العرب رفضوا ذلك وتزعمهم فيه مالك بن العجلان من بنى عوف بن الخزرج ، وهو الذى حارب

بنى ثعلبة وقتل الفطيون زعيمهم ، وكانت تلك بداية استقلال الأوس والخزرج عن اليهود ثم سيادتهم على السهل ودخول اليهود فى حلفهم ، وأخذت بعض بطون اليهود تدخل فى حلف القبائل العربية وترتد عن اليهودية . .

وأهم هؤلاء بنو زعوراء الذين دخلوا فى بنى عبد الأشهل ، وأصبحوا من زعمائهم ، ومن بينهم نبغ سماك بن عتيك بن امرىء القيس بن زيد بن عبد الأشهل وهو الذى قاد الأوس وكسب لهم النصر على الخزرج فى معركة بعاث ، وابنه هو الفارس حضير بن سماك الذى يلقب لفروسيته بحضير الكتائب ، وابنه الصحابى الفارس المعروف أسيد بن الحضير الذى يصفه ابن حزم فى الجمهرة بأنه « بدرى عقبى نقيب » وتلك أعلى مراتب المسلمين جميعاً : أن يكون ممن شهدوا بدراً والعقبة الثانية وكان واحداً من الاثنى عشر نقيباً .

ومهما بحثنا فإننا لانتبين أن اليهود كانوا قوة دينية كبيرة فى المدينة عندما بدأ محمد يبنى الأمة ، ولكنهم كانوا قوة عسكرية ، فبنو قينقاع مثلاً كانوا حلفاء عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين وكان قبل الإسلام سيد بنى سالم الحبلى . وكانت قوة بنى قينقاع تقدر بسبعمائة محارب منهم ثلاثمائة دارع . .

ولكن أولئك اليهود أخذوا يتحولون إلى قوة معارضة دينية خطرة عندما قامت أمة الإسلام ، كأنما أشعرهم قيام الإسلام بأنهم يهود فتصدوا له فى عناد شديد ، ولم تكن العداوة راجعة إلى الدين ، فقد رأينا أنهم من الناحية الدينية لم يكونوا بأهل عقيدة متمسكين ، وإلا فأين بيعهم وأحبارهم وكتبهم ؟ ولكن العداوة كانت عصبية ، أى أنه عز عليهم أن يجىء النبى البشير من العرب فأنكروا إلا نفرا قليلاً ممن عصمهم الله من أمثال الحصين بن سلام (بدون تشديد اللام) من بنى قينقاع ، وقد أسلم وأصبح اسمه عبد الله بن سلام وحسن إسلامه ، وهناك يهود أسلموا نفاقاً وكانوا شراً على الإسلام مثل مالك بن أبى قوقل الذى

تعـوذ بالإسلام (وكان ينقل أخبار النبى ﷺ إلى يهود) كما يقول البلاذرى ، ورافع بن حريملة الذى يعد من كبار المنافقين .

وقد أخذت عداوة اليهود للإسلام وأهله تزداد بزيادة قوة الأمة . . ويذكر الواقدى أن اليهود عاهدوا محمداً ﷺ على ألا يظاهروا عليه عدواً ، ويذهب ابن إسحاق إلى أن بنى قريظة عاهدوا محمداً على أن يدعوه وشأنه دون أن يدخلوا الإسلام .

وكان محمد لا يشك فى أنهم سيكونون أول الناس تأييداً له ، لأن القرآن يؤكد له أنه جاء مصدقاً لما فى كتبهم ، وهذا حق . . فلما رأى موقفهم هذا تركهم وشأنهم مؤمناً بأنهم سيتغلبون على عصبيتهم وسيعترفون بالحق ويفيئون إلى أمر الله ولكنهم ازدادوا عناداً واستقووا بالمنافقين فأصبحوا خطراً على الأمة .

لهذا كان لابد من تحصين الأمة بإظهار شخصيتها وإعلان قيامها ووضع قانونها حتى يعرف المسلمون من هم وأين هم وماذا لهم وماذا عليهم ، ويشعروا بقوتهم ويسيروا فى طريقهم على هديٍ من أمرهم أمة واحدة متآخية متحابة مؤمنة حرة . . رسالتها إدخال الناس جميعاً فى الإسلام .

❊ ❊ ❊

تلك هى الظروف التى جعلت محمداً يشاور أصحابه لوضع دستور الجماعة ، وقد رأى رسول الله أن يكون الدستور مكتوباً حتى يلتزم به أصحابه ، وسنعرضه فقرة فقرة . . ونناقشه ، وسنرى من دلائل أصالته مايدحض حجة أى مكابر ، وإذا قلنا إن للمحدثين القدامى عذرهم لأن نص الصحيفة لم يصل إليهم كاملاً عن طريق السند الصحيح الذى يشترطونه ، فما عذر المؤرخ المحدث وهو يجد نص الصحيفة كاملاً بين يديه ، ويرى دلائل أصالته من كل

ملمة فيه ؟ وماعذره بعد أن بينا له الظروف التى أحاطت بأمة الإسلام الناشئة ، وهى ظروف عسيرة استعدت جمع الأمة فى وحدة واحدة ذات نظام واحد لتواجه خصومها مواجهة فعالة وهى فى عنفوان نهوضها ؟

ولا أجد ماأؤيد به ما أريد قوله إلا أن أورد فيما يلى بضع آيات من سورة البقرة نزلت قبيل كتابة الصحيفة وأثناء كتابتها ، وهى تؤيد ماقلناه وليس بعد القرآن عندنا دليل ، وسنرى أن الصحيفة كتبت على مراحل نعتقد نحن أنها أربع ، ويرى بعض الباحثين أنها أكثر من ذلك ، وهذه التقسيمات كلها ـ أيا كان عددها ـ تزيد من قيمة الصحيفة وتؤيد أصالتها ، فإنها ـ بصفتها دستور الأمة ـ كانت قانوناً مفتوحاً ، كلما تغيرت واستدعى الأمر زيادة مواد جديدة تشاور المسلمون وكتبوا مااتفقوا عليه واعتبروه جزءاً من الصحيفة واستمع إلى قول الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الذينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيهم أَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرهُم لَا يُؤمِنُونَ . خَتَمَ الله عَلَى قُلُوبِهِم وَعَلَى سَمعِهِمْ وَعَلَى أَبصَارِهِم غِشَاوَةٌ وَلَهُم عَذَابٌ عَظِيمٌ . وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِالله وَبِاليَومِ الآخِرِ وَمَاهُم بِمُؤمِنِينَ . يُخَادِعُونَ الله وَالذِينَ آمَنُوا وَمَايَخدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُم وَمَايَشعُرُونَ** ﴾ . (البقرة : الآيتان ٦ ـ ٩) .

وهذه الآيات ترينا كيف أنه كان من الضرورى إظهار وحدة الأمة وإعلان شخصيتها حتى يتحدد الموقف بينها وبين أعدائها الذين يندسون بين صفوفهم و « يخادعون الله والذين آمنوا » .

ثم اقرأ الآيات التالية من سورة البقرة أيضاً لكى ترى كيف كان اليهود يقولون إنهم ينتظرون البشير ، فلما جاء أنكروه : ﴿ **مَثَلُهُم كَمَثَلِ الذى استَوقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَاحَولَهُ ذَهَبَ الله بِنُورِهِم وَتَرَكَهُم فِى ظُلُمَاتٍ لَا يُبصِرُونَ . صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ فَهُم لَا يَرجِعُونَ** ﴾ . (البقرة : الآيتان ١٧ ـ ١٨) .


ثم تأمل هذه الآيات التى تخاطب المؤمنين الصادقين :

﴿ وَبَشر الذينَ آمَنُوا وَعملواْ الصَالحَات أَنَّ لَهُم جَنَّاتٍ تَجرى من تَحتها الأَنهَارُ كُلَّمَا رُزقُواْ منهَا من ثَمَرةٍ رزقاً قَالُواْ هَذَا الَّذى رُزقنَا مِن قَبلُ وَأتُـواْ به مُتَشَابهاً وَلَهُم فيهَا أَزوَاجٌ مُّطَهَّرةٌ ، وَهُم فيهَا خَالدُونَ . إنَّ الله لاَ يَستَحيى أن يَضربَ مَثَـلاً مَابَعُـوضَـةً فَمَـا فوقَهَا ، فَأمَا الَّذينَ آمَنُوا فَيَعلَمونَ أَنَهُ الحَقُ من رَبهم ، وَأمَا الَّذِينَ كَفروا فَيَقُولونَ مَاذَا أَرَادَ الله بهَذَا مَثَـلاً يُضـلُ به كَثيراً وَيَهدى به كَثيراً وَمَايُضلُ به إلاَ الفَاسقينَ . الَّذينَ يَنقُضُـونَ عَهـد الله من بَعـد مِيثَـاقه وَيَقطَعُونَ مَاأمَرَ الله بَه أن يُوصَلَ ويفسدُونَ فِى الأرض أولَئك هُمُ الخَاسرونَ . كَيفَ تَكفرُونَ بالله وَكُنتم أمواتاً فَأحَيـاكُم ثُم يميتُكمُ ثُمَ يُحييكمُ ثُمَ إليه تُرجَعُونَ ﴾ . (البقرة : الآيات ٢٥ ـ ٢٨) .

فا لصحيفة كتبت للذين أمر الله رسوله أن يبشرهم أن لهم جنات تجرى من تحتهـا الأنهار . الذين يعلمون أنه الحق من ربهم ، وقد كتبت كذلك لتحمى الأمة من الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ماأمر الله به أن يوصل .

وهى من هذه الناحية ـ تاريخياً ـ الحد الفاصل بين من آمن ومن لم يؤمن ، بين من يصلح ومن يفسد ، بين أمة الله وأعداء أمة الله .

❊ ❊ ❊



تقوم الأمة على الإيمان والجهاد والأخلاقيات

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ . (سورة الحجرات : آية ١٥) .

هذا كتاب من محمد النبى - ﷺ ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، إنهم أمة من دون الناس .

الآن نصل إلى نص الصحيفة أو الكتاب أو مانسميه بدستور أمة المدينة الذى انتهى رسول الله صلوات الله عليه إلى إقرار نصه بعد الشورى وتبادل الرأى مع أصحابه فى كل جزء ، بل فى كل سطر أو مادة منه ، ليكون بعد ذلك أساس التنظيم والعمل والتعامل فى أمة المدينة أى أمة الإسلام .

حقاً إن القرآن الكريم هو أساس ذلك كله فى أمة الإسلام ، لكن هذه الصحيفة نابعة منه أو هى تطبيق لبعض أحكامه فيما يتصل ببناء الأمة وطبيعة تكوينها وحقوق الناس فيها والتزاماتهم حيالها .

ثم إن القرآن الكريم كان يتنزل وتتكامل الكثير من أحكامه شيئاً فشيئاً ، وسور البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام ومايليها إلى سورة الحج وهى الثانية والعشرون ظلت تتنزل آياتها طوال العصر المدنى كله ، وهذه السور الاثنتان والعشرون تتضمن معظم آيات الأحكام .

وفى أثناء ذلك كانت أمة الإسلام تنمو ويدخل الناس فيها فوجاً بعد فوج ، وكانت مساحتها تتسع يوماً بعد يوم نتيجة للدعوة بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة والسرايا والمغازى ، وذلك كله اقتضى تنظيمًا وتشريعاً قائمًا على القرآن ونابعاً من روحه وموضحاً بالسنة وهى الأسوة الحسنة التى ظل الرسول الكريم يضربها لمن حوله وللأجيال من بعده . وهذه الصحيفة سنة لأنها إقرار من الرسول لما اجتمع عليه رأيه بعد الشورى مع أصحابه ، ثم إن نصها من إملائه ﷺ على كاتبه الأمين العدل إذ ذاك ، وهو على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

وسنرى من نص الصحيفة وصياغتها أن الرسول أقر النص باللفظ والصيغة التى انتهوا إليها حتى تكون المعانى واضحة لأصحابه ، فيكون ذلك أعون لهم على فهمها والالتزام بكل كلمة فيها .

وسنرى كذلك أن كل حكم من أحكامها نابع من آية قرآنية أو مؤيد بحديث من لفظ الرسول نفسه .

وكتابة الصحيفة نفسها تنفيذ أو تطبيق لأمر قرآنى صريح بالكتابة . ومن الغريب أننا نتحدث حديثاً طويلاً عن آيات القراءة مثل أول سورة العلق وسورة « نٓ والقلم ومايسطرون » وننسى آيات الكتابة وهى كثيرة وأساسية وملزمة للناس ، وأطول هذه الآيات وأكثرها تفصيلاً هما الآيتان ٢٨١ و ٢٨٢ من سورة البقرة : ﴿ **يَأَيُّهَا الذينَ آمَنُواْ إذَا تَدَايَنتم بدَين إلَى أجَل مُسَمًّى فَاكْتُبوهُ** .... ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ **وَلاَ تَكتمُوا الشَّهَادَةَ ، وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإنَّه آثمٌ قَلبُهُ وَالله بمَا تعمَلُونَ عَليمٌ** ﴾ . وغريب من الأمر أن المفسرين قصروا أحكامها على الدَّين وحده ، أو الدين المادى وحده ، مع أن الدِّين معنوى أهم وأعظم ، وإيماننا بالله سبحانه وتعالى دين معنوى وميثاق ينبغى التدقيق فيه والوفاء به بأكثر من التدقيق فى الوفاء بدين المال .

جاء فى لسان العرب « والدين الحساب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **مَالِكِ يَوْمِ الدين** ﴾ وقيل معناه مالك يوم الحساب . وقوله تعالى ﴿ **ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ** ﴾ أىَ ذلك الحساب الصحيح والعدد المستوى ، والدين الطاعة ، وقد دنته ودنت له أى أطعته . . . والجمع الأديان يقال : دان بذلك ديانة . . . والدين « الاسلام » أى أن الدين هو دين الله علينا ، ولابد لنا من الوفاء به ، والإسلام هو الالتزام بالطاعة لله سبحانه ، ولابد من الوفاء بهذا الدين الأعظم بأكثر من الوفاء بدين المال .

والله سبحانه يديننا بالإسلام وهو نعمته الكبرى . جاء فى الحديث الشريف : « **الكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله** » .

فكيف مع هذا كله يقتصر فرض الكتابة على دين المال أو الحنطة أو الزبيب دون أن يمتد فيشمل ديننا لله سبحانه وتعالى ، وديننا نحو أمتنا ، وديننا نحو أصحابنا ودين الأب على أبنائه ودين الأبناء على أبيهم ودين الزوجة على زوجها ودين الزوج على زوجته ، وكل هذه عهود وعقود وبيعات والتزامات ينبغى الوفاء بها حتى يكون الناس أمناء مع الله موفين بعهده ، وحتى يكونوا أمناء مع أمتهم موفين بعهدهم مَعاً .

وإذا كنا قد قلنا إن الدخول فى الدين نفسه بيعة أو صفقة لابد من الوفاء بها ، فكيف تقتصر آيتا الدين على دين المال وحده . أليست الأشباه ياقوم بالنظائر ، وإلا فأين القياس ؟ بل أين الفقه نفسه ؟ والفقه عموماً هو الفهم والإدراك ، فأين الفهم والإدراك ؟ .

لكى نفهم آيتى الدين على الوجه الصحيح ينبغى أن نفسرهما آخذين فى الحساب ماسبقهما من الآيات ، لأن من آيات القرآن ماهو مرتبط ارتباطاً كاملاً

بما يسبقها ومايتلوها ، ولا يصح فى هذه الحالات أن تفصل الآيات بعضها عن بعض ويستشهد بها مفرقة منفصلة عما يسبقها ويتلوها من الآيات .

وقد نهى القرآن عن ذلك فقال فى سورة الحجر (آيتى ٩٠ و ٩١) : ﴿ **كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى المقتَسِمِينَ . الَّذينَ جَعَلُوا القرآن عِضِينَ** ﴾ وفى تفسير هاتين الآيتين جاء فى لسان العرب : « وفى حديث ابن عباس فى تفسير (جعلوا القرآن عضين) أى جَزَّءوه أجزاء ، وقال الليث : أى جعلوا القرآن عضة عضة أى قسموه قطعاً قطعاً (مادة عضة من اللسان) .

والآيات السابقة على آيتى الدين ابتداء من الآية ٢٧٢ من سورة البقرة تنص كلها على الإنفاق فى سبيل الله ، والإنفاق فى سبيل الله فرض من العبد الصادق لربه ، فهو دين مادى معنوى مَعاً ، وأشير هنا إلى قوله تعالى فى سورة المائدة : ﴿ **وآمَنتُم برُسُلى وَعَزَّرتُمُوهم وَأقرَضتُمُ الله قَرضاً حَسَناً** ﴾ . (آية ١٢) وقوله فى سورة الحديد (آية ١٨) : ﴿ **إنَّ المصَّدِّقِينَ والمصَّدقَات وَاقرَضُواْ الله قَرضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهم** ﴾ . وقوله فى سورة التغابن (آية ١٧) : ﴿ **إن تُقرِضُواْ الله قَرضاً حَسَناً يُضَاعفهُ لكمُ وَيَغفر لَكمُ** ﴾ . وغير ذلك كثير من آيات القرآن التى تتحدث عن ثواب من يصَّدق وينفق فى سبيل الله أى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعف الله له الثواب .

والآيات التى نشير إليها من سورة البقرة ابتداء من الآية ٢٧٢ ونصها كما ذكرناه : ﴿ **لَّيسَ عَلَيك هُدَاهم ، وَلَكنَّ الله يَهدى مَن يَشَاءُ ... وَمَاتُنفقُواْ من خَير فَلأنفُسكُم وَمَاتُنفقُونَ إلَّا ابتغَاءَ وَجه الله . وَمَاتُنفقُواْ من خَير يُوَفَّ إلَيكُم وَأنتُم لَا تُظلمُونَ** ﴾ . ثم تلى ذلك آيات كريمات كلها عن الإنفاق فى سبيل الله ، أى إقراض الله القرض الحسن ، وعلى من ينبغى الإنفاق ، وصفة الذين ينفقون ، ثم يذم الله الربا وهو القرض غير الحسن .

وكيف يحل الله البيع ويحرم الربا ، وهكذا حتى نصل إلى آيتى الكتابة ، فهما إذن تشملان إقراض الإنسان لأخيه الإنسان ، وتشملان بالمعنى والسياق دين الإنسان لربه بنعمة الإسلام ودين المخلوق للخالق سبحانه بالقرض الحسن ، ويتضح لنا هذا المعنى عندما نقرأ الآية ٨٢ من سورة النساء وهى تقول : ﴿ **وَيَقُولونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرزواْ من عندكَ بَيَّتَ طَائفَةٌ منهُم غَيرَ الذى تَقُولُ ، وَالله يَكتُبُ مَايبيِّتونَ ، فَأَعرِض عَنهُم وَتَوكَّلْ عَلَى الله وَكَفَى بِالله وَكيلاً** ﴾ .

فإذا كان الله سبحانه وتعالى يكتب كل مايفعل الناس من خير أو شر ـ وهو فى غير حاجة إلى كتابة ـ أفلا يكتب الناس كل مايجرى بينهم من معاملات فكيف والله تقتصر آية الدَّيْن على كتابة دين المال أو عقد المال أو بيعة المال وهى أهون البيعات وأيسر العقود والديون ؟

وينحسم الأمر فى حسابنا عندما نقرأ فى الآية ٦١ من سورة يونس : ﴿ .. **وَمَايَعزبُ عَن رَّبكَ من مثقَال ذَرَّةٍ فى الأَرض وَلاَ فى السَّمَآء وَلاَ أصغَرَ من ذَلكَ وَلاَ اكبَرَ إلاَّ فى كتَابٍ مُّبين** ﴾ .

فإذا كان الله سبحانه يكتب فى كتاب مبين أى واضح كل شىء حتى الذرة وماهو أصغر منها فكيف لا نستنتج من هذا أن المسلمين والمؤمنين ينبغى لهم أن يكتبوا كل شىء مما يجرى بينهم من تعامل كبيراً كان أو صغيراً ، عظيماً أو هيناً ، فإذا كان هذا هكذا أفلا نخرج من هذا بأن معرفة الكتابة والقراءة فرض على كل مسلم مؤمن . ولا يقدح فى هذا بحال أن الرسول ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، فهذه آية من آيات نبوته وبرهان من براهين صدقه ﷺ ، وهو أمر لا ينسحب على أى مسلم غيره .

لهذا قرر رسول الله ﷺ أن يكون ميثاق قيام الأمة وإعلان قيامها وتحديد أهلهـا ومسئـولياتهم وماهم وماعليهم مكتوبا فى كتاب أو صحيفة لا مجرد بيعة شفهية أو ميثاق غير مكتوب ، فذلك أقطع للشك وأبعد للريبة ، فإن عقد قيام الأمة ينبغى أن يكون ثابتاً واضحاً لا يختلف الناس فى نصوصه ، واذكر معى هنا قول الله فى آية سورة البقرة ٢٨٢ : ﴿ **وَلَا تَسأَمُوا أَن تَكتُبُوهُ صَغِيراً أَو كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُم أَقسَطُ عِندَ اللهِ وَأَقوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدنَى أَلَّا تَرتَابُوا** ﴾ . . .

اشتور الرسول ﷺ مع أصحابه إذن فى شأن أمتهم أمة الإسلام ، وكلما اتفق رأيهم على مادة أو مواد أملى الرسول صيغتها على على بن أبى طالب ، وهو كاتب عدل وشاهد عدل لا يبدل ولا يغير وهو مؤتمن يأمن إليه الناس جميعاً وهو قوى لا يكتم الشهادة ولا يخشى فى الله أحداً من العالمين ، وكل الألفاظ التى استعملتها هنا واردة فى آيتى الدين .

وقد كتبت الصحيفة كما قلنا على مراحل . وبعض الباحثين فى أمرها يسمونها لذلك وثائق لا وثيقة واحدة فيقولون الوثيقة الأولى والثانية ، وهكذا حتى يصلوا بها إلى ثمان ولا بأس بهذا التقسيم وإن كنا نحن لا نصل به إلى ثمانية أقسام أو وثائق .

والكتاب أو الصحيفة واردة عند ابن هشام نقلا عن ابن إسحاق سرداً دون تقسيم إلى أقسام وفقرات أو مواد ، ولكننا نحن المحدثين نقسمها مواد لكى تتضح معانيها وقيمتها كوثيقة سياسية ذات أهمية كبرى ، وأول من فعل ذلك الدكتور محمد حميد الله الحيدر ابادى الهندى عندما نشر كتابه القيم « الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة » ، أول مرة فى القاهرة سنة **١٩٤٣** وعنه نقل التقسيم إلى مواد ـ فيما أحسب ـ مونجومرى واط فى كتابه عن « محمد فى المدينة » . ثم عدت إليها وقسمتها بحسب الاستقراء إلى أربعة أقسام رأيت أن كلا منها كتب فى مرحلة من مراحل العهد المدنى وعندما درسها روبرت برترام

سارجانت مع طلابه فى جامعة لندن قسموها إلى ثمانية أقسام أو ثمانى وثائق ثم أعدت النظر فى الموضوع فى الفصل الذى أوردته على دستور أمة المدينة . . فى كتاب : عالم الإسلام » ، وسنرى الآن كيف نقسمها بعد سنوات من الدرس والتحقيق .

القسم الأول :

كتب هذا القسم قبل موقعة بدر فى أثناء بناء المسجد ، وربما كان ذلك قبل المؤاخاة أو بعدها ، والأرجح أن المؤاخاة كانت بعد تدوين ذلك القسم الأول ، لأن المؤاخـاة مبنية عليه ، فالمؤاخـاة كانت لتـوثيق الـروابط بين المهـاجـرين والأنصار ، ولا يكون ذلك إلا بعد قيام الأمة وشعور أعضائها بأنهم أمة واحدة من دون الناس قائمة بنفسها على أساس الدين ومكارم الأخلاق .

ويجمع المؤرخون على أن الكتابة ـ والمؤاخاة ـ كانت فى دار أنس بن مالك ، والكلام لا يصح على هذه الصورة ، لأن أنس بن مالك كان غلاماً فى الثامنة أو التاسعة فى ذلك الحين ، فلا يصح أن يكون له بيت يجتمع فيه المسلمون مع رسول الله يتشاورون ثم يكتبون مايتفقون عليه ، ولكن الأصح أن البيت كان لأمه أم سُلَيْم بنت ملحان وكانت من الصحابيات من بنى النجار ولم تكن بذات مال لأنها عندما أسلمت أحبت رسول الله وأرادت أن تقدم له شيئاً ، ولم يكن لديها مال ، فأتت رسول الله بابنها هذا وقالت : يارسول الله ، هذا هو غلام كاتب فأخـذه رسول الله . فخدمه أنس حتى كبر وفهم ، فكتب وروى عنه ، وهو الذى قـال « فخدمتـه تسع سنين فما قال لى قط لشىء صنعتـه : أسأت أو بئس ماصنعت »

ولا يستبعد أن يكون لأم سُلَيم بنت ملحان (وهى أم أنس) بيت واسع الرحبة يجتمع فيه الرسول مع أصحابه .

وهذايتفق مع مانعرف من مسلك الرسول ، فقد كان ـ قبل بناء المسجد ـ يتحاشى أن ينزل أو يجتمع بالناس لأمر ذى شأن فى بيت أحد النقباء أو كبار القوم حتى لا يعطى لأحد منهم ميزة ترفعه فوق إخوانه ، وكان صلوات الله عليه فى الغاية من بعد النظر وحساب العواقب ، وقد رأينا مصداق ذلك فى نزوله عند أبى أيوب خالد بن زيد الأنصارى من بنى مالك بن النجار ، وكان من أوساط الناس مفضلاً ذلك على النزول فى دار أسعد بن زرارة أو سعد بن معاذ أو أى واحد من النقباء .

والآن إليك القسم الأول من الصحيفة أو الكتاب مقسمًا إلى فقرات تيسيراً للمناقشة .

يتضمن هذا القسم إعلان قيام أمة الإسلام ، وممن تأسست أول الأمر ، ثم القواعد الأساسية التى تنظم أمور هذه الأمة ، والروابط التى تربط بين أفرادها والحقوق الأساسية لأفراد الأمة والالتزامات المتعينة عليهم حيال بعضهم البعض ، وموقفهم كأمة واحدة قائمة على العقيدة حيال غيرهم من الناس والأساس الأخلاقى المتين الذى تقوم عليه وهو أساس أخلاقى جماعى لأن أخلاقيات أمة الإسلام كلها جماعية ، أى أنها روابط أخلاقية كريمة بين أعضاء الأمة ولا مكان فيها للفضائل الفردية مثل كسب الإنسان المال لنفسه وحدها بالحلال أو إكرام الإنسان لإخوانه على سبيل الفخر أو لنيل السؤدد ، فالعمل كله جماعى والفضائل كلها إسلامية عامة لا مكان فيها لقبيلة أو عصبية إلا على أساس تحديد المسئولية ، أى أن ذكر المجموعات المؤسسة للجماعة لا يجعل للعصبية القبلية أو العصبية القرابية أى مكان أو أهمية . .

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ هذا كتاب من محمد النبى ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم . .

٢ ـ إنهم أمة من دون الناس .

٣ أ ـ المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عَانِيهمْ بالمعروف والقسط بين المؤمنين . . .

٣ ب ـ وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيهاَ بالمعروف والقسط بين المؤمنين . .

٣ جـ ـ وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . .

٣ د ـ وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . . .

٣ هـ ـ وبنو جُشَم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . . .

٣ و ـ وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . .

٣ ز ـ وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . . .

٣ ح ـ وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . . .

٣ ط ـ وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . . .

٤ - وأن المؤمنين لا يتركون مفرجاً بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل . . .
٥ - ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه . . .
٦ - وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيسة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين . . .
٧ - وأن أيديهم عليه جميعاً ، ولو كان وَلَدَ أحدهم . .
٨ - ولا يقتل مؤمن مؤمناً فى كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن .
٩ - وأن ذمة الله واحدة ، يجير عليهم أدناهم . . .
١٠ - وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس . . .
١١ - وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصر عليهم . . .
١٢ - وأن سلم المؤمنين واحد ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم .
١٣ - وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً . . .
١٤ - وأن المؤمنين يبىء بعضهم على بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله . . .
١٥ - وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدًى وأقومه . . .

والآن نعلق على هذه المواد واحدة واحدة على اعتبار أنها أساس تنظيم أمة المدينة وأسلوب التعامل فيها . .

المـــادة الأولى :

وفيها بيان الأطراف الداخلة فى هذا الميثاق أو العهد . ويلاحظ أن هذا ليس عطية من محمد ﷺ إلى الأمة ، فهى تقول كتاب من محمد بين المؤمنين وليس إلى . وتلك نقطة هامة جداً ، فنحن هنا لسنا أمام إملاء من محمد ﷺ إلى الأمة ، بل كتاب يسجل فيه محمد ماتم الاتفاق عليه بينه وبين الأمة ، وبين

طوائف الأمة بعضها وبعض ، وهناك عبارة بين المؤمنين والمسلمين ، فمن هم المؤمنون ومن هم المسلمون ؟ لا يمكن أن يكون اللفظان مترادفين ، فإن الكتاب أو الصحيفة أدق وأخطر من أن تستعمل فيها مترادفات . .

وهذا من أدلة أصالة الوثيقة ، فهى عقد واضح دقيق بين الرسول وأصحابه ، وكلهم فى الغاية من الجدية وإدراك خطورة المقام وأهمية الألفاظ . .

فالحق أن هناك فرقاً شاسعاً بين المؤمنين والمسلمين ، وهذا الفرق يستدعى النص على الفئتين فى الوثيقة . . .

وإليك الفرق بين المؤمنين والمسلمين كما نجده ، فى لسان العرب لابن منظور المصرى الأفريقى :

والإيمان التصديق (التهذيب للجوهرى) وأما الإيمان فهو مصدر آمن يؤمن إيماناً فهو مؤمن . واتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم أن الإيمان معناه التصديق . قال الله تعالى : ﴿ **قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ...** ﴾ ، قال : وهذا موضع يحتاج إلى تفهيمه ، وأين ينفصل المؤمن عن المسلم ، وأين يستويان والإسلام إظهار الخضوع والقبول لما أتى به النبى ﷺ وبه يحقن الدم . فإن كان مع ذلك الإظهار اعتقاد وتصديق بالقلب فذلك الإيمان الذى يقال للموصوف به : هو مؤمن مسلم ، وهو المؤمن بالله ورسوله غيرمرتاب ولا شاك ، وهو الذى يرى أن أداء الفرائض واجب وأن الجهاد بنفسه وماله واجب عليه ولا يدخله فى ذلك ريب ، فهو المؤمن وهو المسلم حقاً كما قال الله عز وجل : ﴿ **إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون** ﴾ . أى أولئك الذين قالوا إننا مؤمنون ، فهم الصادقون ، فأما من أظهر قبول الشريعة

واستسلم لدفع المكروه فهو فى الظاهر مسلم ، وباطنه غير مصدق ، فذلك الذى يقـول : أسلمت لأن الإيمان لابـد أن يكون صاحبه صديقاً لأن قولك آمنت بالله ، أو قال قائل : آمنت بكذا وكذا فمعناه صدقت ، فأخرج هؤلاء (يريد الأعـراب) مـن الإيمان ، فقـال : ﴿ **ولما يـدخل الايمان فى قلـوبكم** ﴾ أى لم تصدقـوا إنما أسلمتم تعوذاً من القتل . فـالمؤمن مُبْطن من التصـديق مثلما يظهر والمسلم التام الإسلام مظهِر الطاعة مـؤمن بها والمسلم الذى أظهر الإسلام تعوذاً غير مؤمن فى الحقيقة ، إلا أن حكمه فى الحقيقة حكم المسلمين ...

وإنما أوردت هذه العبارة الطويلة على تواليها لكى يعرف كل من قرائى أين هو من الإيمان أولاً ..

ثم لكى نعرف أن الايمان الحق يستلزم كما هو واضح من الآية التى ذكرناها (إنما المؤمنون . . . الآية) وهى الآية ١٥ من سورة الحجرات ثلاثة أشياء : التصديق وعدم الارتياب بعد الإيمان ثم الجهاد بالمال والنفس فى سبيل الله .

هذا فى القرآن الكريم كما رأينا ، هذا فى الفقرة الأولى من إعلان الوثيقة : لاحظ عبـارة : ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، فالجهاد هنا أساس فى تكوين عضو الأمة المؤمن . .

وإذا قرأنا المواد الخمس عشرة التى يتكون منها هذا القسم من الصحيفة للاحـظنـا أن الكـلام كله مقصـور بعـد ذلـك على المؤمن والمؤمنين دون ذكر للمسلمين ولو مرة واحدة .

فكأن المؤمنين فحسب لا المسلمين هم الذين يحسب لهم حساب فى تكوين الأمة ، إذن فلماذا ورد ذكر المسلمين فى المادة الأولى ؟ لأن رسول الله ﷺ لم يكن يستـطيع أن يهمـل ذكر ناس دخلوا الدين ولو بشفاههم ، فما داموا قد نطقوا بالشهادتين وقالوا إنهم مسلمون فلابد من قبولهم وإقرارهم ، لأن الإيمان بعد

ذلك بيد الله وحده : هو الذى يهدى للإيمان من يريد أو هو الذى يهدى الإيمان لمن يريد ، أما بعد ذلك وفى المواد الخاصة بالحقوق والواجبات فالكلام يقتصر على المؤمنين دون غيرهم لأنهم هم - لا عامة المسلمين - عماد الأمة .

وهناك ملاحظة لغوية هى فى ذاتها دليل على أصالة الكتاب ، فلو أنها موضوعة لما وردت فيها عبارة مثل « بين المؤمنين والمسلمين من قريش » ويثرب فقريش اسم قبيلة ويثرب اسم مدينة فكيف يعطف اسم قبيلة على اسم مدينة ؟ ثم هل كان كل المهاجرين من قريش ؟ كان فيهم من غير قريش مثل عمار بن ياسر وأبى ذر الغفارى .

وقبل أن أختم الكلام على المادة الأولى أحب أن أضع خطوطاً كثيرة تحت عبارة : وجاهد معهم ، وأذكر القارىء بما ورد فى الآية ١٥ من سورة الحجرات التى ذكرناها التى تنص نصاً لا شك فيه على أن المؤمن لا يتم إيمانه حتى يجاهد كل منهم فى سبيل الله بماله ونفسه . . .

فمعنى ذلك أن الجهاد بالنفس والمال فرض عين لا فرض كفاية . . فمن أين للفقهاء بالقول بأن الجهاد فرض كفاية وأسقطوه كواجب أساسى على كل مؤمن . لقد نص القرآن على ذلك مرة بعد مرة ، وسورة التوبة جعلت الجهاد فرضاً على كل مسلم ، وفى بقية هذا القسم من الصحيفة وفى أقسامها الأخرى نجد الجهاد جزءا لا يتجزأ من الايمان وفرضاً لازماً على كل مسلم مؤمن .

فكيف أسقط هذا الواجب ؟ وهل يدرى الناس أثر ذلك فى تطور تاريخ الإسلام ؟ . أثره أن الخلفاء ابتداء من الدولة العباسية أخرجوا العرب ومعظم أمة الإسلام من أشرف واجب يؤديه المؤمن : الجهاد بالنفس والمال واعتمدوا فى تكوين جيوشهم على جند مرتزق مشترى بالمال وبالجند المرتزق أذلوا الأمة وأخرجوها من ميدان السياسة جملة . كان ذلك بداية التدهور بل كان هو

التدهور ، هل هناك تدهور هو أشد من تحويل أمة الإسلام إلى رعية ، أى قطيع غنم تُرْعى بكلاب هم الجند المرتزق . .

اذكر معى هنا أبا بكر الصديق حقاً الذى فهم درس الإيمان الحق عن رسول الله ، هنا تفهم كيف أن أبا بكر اعتبر المقصر فى إيتاء الزكاة مرتداً عن الإسلام لأنه منفصل عن الجماعة والأمة ، وعلى هذا الأساس حارب المرتدين ـ ولم يكونوا مرتدين ـ حتى عادوا للإيمان الكامل بالإسلام كما أراده الله سبحانه وكما أخذ الناس به رسوله الكريم ...

اذكر معى فى نهاية هذا الحديث قول أبى الطيب :

وإنما الناس بالملوك وما تفلح عرب ملوكها عجم
لا أدب عندهم ولا حسب ولا عهود لهم ولا ذمم
بكل أرض وطئتها أمم ترعى بعبد كأنها غنم

أمة الإسلام حلف من المؤمنين الأحرار

جماعات حرة متحدة فى المبادىء والغايات ، والمسلم أخو المسلم ، والمسلمون إخوة ، والمسلمون يد واحدة على من سواهم ، تتكافأ دماؤهم ، يرد عليهم أقصاهم ، ويعقد عليهم أدناهم . (من خطبة رسول الله ﷺ بعد فتح مكة) . (الواقدى ٢/٨٣٦) .

أحسب أن هذه الدراسة قد طالت وجاوزت المألوف فى الدراسات التى تنشر منجمة فى الأسبوعيات ، ولقد بدأنا عرض نص الكتاب أو الصحيفة أو الدستور فى حديثنا الماضى . وفى هذا الحديث والذى يليه نستتم عرض بقية مواد الصحيفة فى إيجاز . . ولم يكن الاستقصاء الشافى الوافى غرضنا من هذه المقالات ، إنما غايتنا أن نبين للناس أهمية هذه الصحيفة ، فهى بعد القرآن الكريم وبقية الأحاديث النبوية ، تعطينا خطاً جديداً واضحاً فى الفكر السياسى الإسلامى الأصيل ، بعيداً عما أدخل عليه وأقحم فيه من آراء جاهلية وأفكار غير إسلامية انحرفت بمسار الفكر السياسى عندنا انحرافاً لم يجعل منه فكراً سياسياً أصيلاً ، إنما هو مواعظ وأمانى وتقسيمات وتقنينات هالكة لا يتحصل منها شىء ، نجدها فى كتب الأحكام السلطانية ومواعظ الملوك ومرايا الأمراء التى يسميها بعض الناس بالفكر السياسى الإسلامى ظلماً منهم وعدواناً .

وقد قرأنا عند ابن هشام نقلاً عن ابن إسحاق فاتحة الصحيفة ، ثم المادة الأولى منها ، ونصها كما يلى : « وكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهود وعاهدهم ، وأقرهم على دينهم وأموالهم ، وشرط لهم واشترط عليهم » .

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ هذا كتاب من محمد النبى ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم .

وقد ناقشنا المادة الأولى على قدر ماتيسر لنا ، ولكننا نحب أن نؤيد صحة الوثيقة نصاً ومعنى بنص قرآنى وهو قول الله تعالى فى الآية ٧٤ من سورة الأنفال :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ الله وَالَّذِينَ آوَوْا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ المؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُمْ مَّغْفِرَةٌ ورِزْقٌ كَرِيم ﴾ .

ألا نجد هنا كل العناصر المكونة للأمة الإسلامية الأولى كما وردت فى فاتحة الصحيفة ومادتها الأولى ؟ .

فكيف يتطرق إلى أحد شك فى أصالة هذه الصحيفة بعد ذلك ؟ .

والمادة الثانية من الصحيفة تقول عن هذه العناصر . . إنها تؤلف الأمة فيما بينها ، وتقول عنهم الصحيفة « إنهم أمة واحدة من دون الناس » .

وتلك هى النقلة الكبرى فى تاريخ أمة الإسلام : إلغاء القبليات

والعصبيات واعتبار المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم « أمة من دون الناس » .

الإيمان بالله هو الرابطة ، والجهاد فى سبيل الله هو الغاية .

ومن الرابطة والغاية تتكون الأمة ، إنها أمة البشر جميعاً من المؤمنين ، يربطهم بعضهم إلى بعض الإيمان الواحد ، ووظيفتهم وغايتهم الجهاد فى سبيل الله ، فأين هذا من ديانة بنى إسرائيل التى تقول - فى زعمهم - إنها رابطة بين أسباط إسرائيل من دون البشر ، ومن عداهم كفار ، سواء أكانوا مؤمنين بالله أم لم يكونوا مؤمنين .

والعبرة فى تكوين أمة الإسلام على هذا النحو هى أن أى جماعة حية نشيطة عاملة لا تكون عاملة فى سبيل الخير حقاً إلا إذا كان لها إيمان يجمعها ، ولا تزال بخير مادامت لها غاية تسعى إلى تحقيقها ، فإذا تلاشت الغاية العليا انتهت الأمة أو الجماعة كقوة فعالة فى بناء البشر ، وصانعة للتاريخ .

واذكر معى هنا قول الله سبحانه فى سورة الحجرات ، آية ١٣ : ﴿ **يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ .

أجل . . كلنا أولاد أب واحد وأم واحدة .

وجعلنا الله شعوباً مثل شعب مصر وشعب العراق وشعب الشام وشعب الهند وشعب الصين وشعب اليونان والرومان .

وجعلنا كذلك قبائل مثل قبائل العرب والبربر والترك والمغول والتتار ، ولا يخرج أهل الأرض فى الجاهلية أى ماقبل الإسلام ، عن أن يكونوا إما قبائل وإما شعوباً .

ثم جاء الله بالإسلام ليتعارف بعضنا على بعض ، لنكون أمة واحدة هى أمة الإيمان ، وليكون المقياس الوحيد بيننا هو التقى أى تقوى الله ، وهى أم الفضائل ، و« رأس الحكمة مخافة الله » .

* * *

والمادة الثالثة تبين لنا العناصر المكونة للأمة ، وهم المهاجرون من قريش ، وخمس وحدات قبلية من الخزرج ، هم بنو عوف وبنو ساعدة وبنو الحارث وجشم وبنو النجار .

وإذا نظرنا إلى جدول أنساب الخزرج وجدنا أن هذه الوحدات الخمس تجمع كل الخزرج .

وثلاث وحدات من الأوس هم بنو عمرو بن عوف وبنو النبيت وبنو الأوس ، والمراد بهم مجموعة من ثلاث قبائل أوسية ، وهم وائل وأمية وعطية ويطلق عليهم معا اسم الجعادرة :

وهذه الوحدات الثلاث هى كل الأوس .

وبنو الأوس المذكورون هنا كانوا يسمون أوس مناة ، وقد تأخر إسلامهم إلى مابعد الخندق ، أى أنهم دخلوا الأمة دون إسلام ، ينطبق عليهم هنا ماجاء فى المادة الأولى : « ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم » .

ومحمد ﷺ لم يكرههم على الإسلام بل تركهم لأنفسهم حتى هداهم الله للإيمان فدخلوا فيه . .

وتستوقف نظرنا هنا العبارة التى ترد مع كل وحدة قبلية من هذه ، وهى عبارة لا تتغير إلا فيما يتعلق بقريش ، وهى :

« المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم ، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين » .

وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

ومعنى « على ربعتهم » . ينظمون أمورهم على الطريقة التى مضوا بها إلى الآن مادامت لا تتعارض مع الإسلام .

ويتعاقلون معاقلهم الأولى : أى يشتركون فيما بينهم (على دنهم) فى دفع ديات من يقتلونه أو يجرحونه من غيرهم ، تعويض من قتل أو جرح منهم على اشتراك بينهم فى ذلك . أما المهاجرون فقد تركوا ـ بهجرتهم ـ معاقلهم أى دياتهم ، فهم يشتركون فى دفع دياتهم الجديدة مشتركين .

وماذا نستنتج من النص على ذلك مع كل وحدة قبلية واحدة واحدة من هذه الوحدات القبلية بالاسم ؟ معناه أن أمة الإسلام من الممكن أن تتألف من وحدات سياسية كل منها مستقلة عن الأخرى فى شئونها الداخلية وشئونها المالية بشرط أن تجتمع كلها على الإيمان والجهاد والذياد عن حوض الأمة وأراضيها كلها مجتمعة .

وسترد شروط أخرى بعد ذلك ، ولكن هذا هو المهم . ومعنى ذلك أن أمة الإسلام الواحدة تجمعها روابط الإسلام والجهاد مادامت تشترك معا فى شئون الدفاع عن أوطانها التى يجعلها الإسلام وطناً واحداً . ومعنى ذلك ـ مرة ثانية ـ أن أمة الإسلام الجامعة ، أمة الأحرار ، لم يكن من الضرورى قط أن تخضع

لنظام سياسى واحد أو لسلطان مركزى واحد . . بل يمكن أن تربط وحداتها بعضها إلى بعض رابطة رمزية هى التى سماها أبو بكر « خلافة » . . وهى مصطلح بعيد كل البعد عن معنى الملك أو السلطان أو الدولة أو الإمبراطورية . وذلك هو لباب الفلسفة السياسية لأمة الإسلام .

إنها ليست إمبراطورية ولا كسروية ولا قيصرية تخضع الناس لسلطان واحد بالقهر والقوة ، بل هى رابطة الإيمان التى لا تمس كرامة شعب من شعوبها أو وطن من أوطانها . فكما أن كل فرد فى هذه الأمة حر مادام ملتزماً بالإيمان بعقيدة الأمة مرتبط معها بروابط الجهاد والدفاع عن الدين وحماية وطن الأمة العام الواحد ، فكذلك كل وحدة من وحداتها كان من الممكن أن تظل قائمة بذاتها وشخصيتها ومقوماتها داخل رباط وحدة الإيمان الواحد والهدف الواحد .

وأبو بكر عندما قرر حرب المرتدين لم يفعل ذلك عقاباً لهم على الرغبة فى الاستقلال بمواطنهم وشئونهم ، بل محافظة منه على الوحدة الروحية والمعنوية للأمة ، ولهذا حاربهم على الامتناع عن إيتاء الزكاة وهى شيء رمزى ، وعندما عادوا إلى إيتاء الزكاة ترك كل جماعة منهم حرة فى مواطنها ومنازلها ، وطلب إليها أن تشترك فى الجهاد دون أن يحتل أراضيها بقوة عسكرية ، ودون أن يقيم على كل منها حاكمًا .

ولهذا سمى الرسول ﷺ رجاله بالعمال ، جمع عامل ، والمراد به العامل على الصدقة (والعاملين عليها) والصدقة أو الزكاة هى رمز إخاء المسلم للمسلم أو حق المسلم على المسلم ، والعامل فى الحقيقة ليس حاكمًا إنما هو الرجل الذى يرسله الخليفة ليعمل على تحقيق معنى الإخاء بالعمل على الصدقات أو الزكوات .

هنا نفهم الفرق بين عمال أبى بكر هؤلاء وعمال معاوية الذين كانوا مرازبة وحكاماً عسكريين من أمثال زياد بن أبيه وعبيد الله بن زياد والحجاج بن يوسف

ويوسف بن عمر وخالد بن عبد الله القسرى .

أمة الإسلام إذن فدرالية ، مثلها فى ذلك مثل الكانتونات السويسرية أو الـولايات المتحـدة الأمريكية . قررها الرسول وأصحابه ونفذها السويسريون والأمـريكيون ، أمـا نحن فانتكسنا وارتكسنا وجعلناها كسروية أو قيصرية . أرأيت معى الانكسار القاتل الذى أصاب الاتجاه السياسى الإسلامى ؟ .

وهل فهمت إذن لماذا قلت لك إن كل اتجاه الفكر السياسى عند المسلمين كان خارج نطاق أمة الإسلام كما أرادها الرسول وأصحابه ؟ . . كل هذا الفكر السياسى دار حول « الخلافة الملك » أى الكسروية أو القيصرية تحت ستار من خلافة ، بالاسم ، وهى ملك فى الواقع .

كل جماعـة منهم حرة فى مواطنهـا « تتعـاقل معاقلها الأولى وتفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين » . . . وأبو بكر لم يرسل إلى منازل القبائل حكاماً أو قوات عسكرية ترابط فيها ، بل دعاهم إلى الاشتراك فى الجهاد فاشتركوا فيه وفتحوا ومدوا رواق أمة الإسلام .

هنا نفهم الفرق بين عمال الرسول ﷺ وعمال أبى بكر وعمر من ناحية ، وعمال معاوية بن أبى سفيان وأبى عبد الله السفاح ومن جاء بعدهما من ناحية أخـرى ، فهؤلاء الأخيرون كانوا مرازبة (جمع مرزبان وهو الحاكم العسكرى الفارسى) أو حكاماً عسكريين روماناً Pracefeatus - Praefecti وأمثلتهم - كما قلنا - زياد بن أبيه وعبيد الله بن زياد والحجاج بن يوسف ويوسف بن عمر ويزيد ابن أبى مسلم ، فهؤلاء لم يكـونوا عمالاً لخليفة مسلم ، إنما كانوا نواب ملوك Vicerius يضربـون الناس ويذلونهم ويحبسونهم ويقتلونهم ، وواحد منهم دبر اغتيال الحسين بن على رضى الله عنه وعن آله أجمعين .

أمة الإسلام إذن ـ نتيجة لما قلناه ـ فدرالية أو تحالف وحدات سياسية كل منها مستقلة بذاتها وشخصيتها وإقليمها وتقاليدها ونظام العمل الداخلى (على ربعتهم) فيما لا يتعارض مع دستور الأمة العام ، وهو هنا القرآن والسنة ، ومن السنة هذه الصحيفة ، وهى سنة أقرها النبى ﷺ وأملاها باللفظ الذى أقرته به الأمة لا بلفظه ﷺ لأنه أراد أن تلتزم بها الأمة لفظاً ومعنى .

إنها فدرالية وليست دولة مركزية ، مثلها فى ذلك اتحاد الكانتونات السويسرية Con Federtio Heloetica والولايات المتحدة الأمريكية .

أما نحن فانتكسنا وارتكسنا وجعلناها إمبراطورية أو كسروية أو قيصريه . ألغينا كل أساس الأمة الإسلامية وروح التنظيم فيها ، ثم جلس فقهاؤنا يتناقشون فيمن يحق له أن يكون الخليفة القيصر أو الخليفة الإمبراطور ، وجعلوا الأمة قطيعاً من الغنم ـ رعية . . .

هل فهمت إذن لماذا قلت لك : إن كل اتجاه الفكر السياسى الإسلامى عند أصحاب السلطان ورجالهم ونصحائهم لم يكن إسلامياً ؟ . . ومن بين هؤلاء النصحاء وهم جزء لا يتجزأ من التركيبة السياسية والاجتماعية العامة ، أو مايسمى بالاستابلشنت Estaablishment وهو مفهوم نترجمه ترجمة حرفية خاطئة فنقول المؤسسة ، وماهو المؤسسة إنما هو النظام السياسى والاجتماعى والاقتصادى القائم لجماعة مَعاً . . أيا كان شكله واتجاهه .

* * *

والمادة الرابعة تقول : وأن المؤمنين لا يتركون مفرجاً ـ أو مفرحاً ـ بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل .

والمفرج (بالجيم) هو المسلم الغريب الذى يدخل فى جماعة إسلامية ناجياً بدينه من جماعته الكافرة ، والمفرح (بالحاء) هو المثقل بالدين .

وسواء أكان هذا أم ذاك فإن الفكرة وراء المعنيين إسلامية صرف ، فإن واجب الجماعة حيال هذا وذاك هو أن تعطيه فى حدود المتعارف عليه لكى يفتدى نفسه إن كان أسيراً بين قومه الأولين ، أو يؤدى ديته إن كانت عليه دية (عقل) .

هنا أيضاً يتأكد معنى التضامن والتكافل بين أفراد الأمة . هنا كذلك نرى أن كل القواعد الأخلاقية التى تسير عليها الجماعة قواعد جماعية أو أخلاقيات جماعية ، أى الأخلاقيات التى يتطلبها الإنسان لأمة متآخية متكافلة .

* * *

والمادة الخامسة سياسية اجتماعية : « ولا يحالف مؤمن مولى دونه » والحلف المراد هنا هو رابطة ولاء أو موالاة بين رجلين ، وهذا الحلف يستتبع التزامات مالية وسياسية واجتماعية بين الإنسان ومن يدخل فى حلفه أو ولائه ، فالحليف على شرط العرب إذ ذاك ملزم بأن يقف مع حليفه فى حالات الخلاف والنزاع ، وهو ملزم بأن يؤدى عنه دينه لأنه ضامنه ، ويؤدى كذلك ديته أو دية ماجرح أو اقترف ، ومن ثم فلا يجوز أن يحالف مؤمن مولى مؤمن دون علمه أو على رغمه .

* * *

والمادة السادسة تقول : « وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى وسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين » .

فهي إذن مادة تنظيم سياسي اجتماعي وتشريع داخلي لتنظيم الأمور داخل الأمة أو الجماعة .

فالمؤمنون المقصودون هنا هم المتقون ، أي الذين يراعون الله ويخافونه ويتصرفون في حدود ماأمر ونهى وشرع ، وهؤلاء هم الأمة أو جماعة أهل الإيمان ، وهم ملزمون جماعياً أن يقوموا على من تعدى حدوده وتعدى على حقوق غيره (وسيعة ظلم) أو اقترف أي مخالفة للقانون الخلقي الإسلامي ، أو ارتكب عدواناً صريحاً على الجماعة أو فرد منها ، أو حاول الفساد أو الإفساد بين المؤمنين . هؤلاء جميعاً تقف الأمة كلها في وجههم وتنزل بهم العقاب .

هنا نرى كيف أن الصحيفة تجعل القوة الحقيقية والسلطان كله للأمة ، ولها ـ كما سنرى ـ أن تختار من يقوم بذلك بتفويض منها ، ولكن المسئولية تظل مسئولية الأمة كلها في كل حالة ، ولا يشفع لها شيء في أن تترك باغياً يبغى عليها أو على فرد من أفرادها ، أو ظالماً يرتكب الإثم والفساد داخل الأمة . . .

ثم انظر إلى المادة التالية وهي السابعة ، فهي مكملة لهذه ومؤكدة لمعنى سلطة الأمة وواجبها نحو تنظيم أمورها وإقرار الأمن والقانون داخل نطاقها مهما كانت الظروف : « وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم » . . .

أجل . . الأمة وسلامة الأمة والحفاظ على السلام والأخلاق داخل الأمة مسئولية الأمة كلها ، حتى لو اختارت من يقوم بذلك باسمها ، فإن ذلك لا يعفيها من المسئولية الجماعية ، وواجبها هذا ملزم حتى حيال الأبناء ، وهذا هو الذي أراده أبو بكر عندما قال : أيها الناس ، قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني .

هنا يعترف أبو بكر بسلطان الأمة ، ويقول إن اختيار الأمة إياه لا يعفيها من المسئولية ، فإذا هو أحسن القيام بما اختارته الأمة له فعليها أن تعينه ، وإن هو

أساء أو عجز عن القيام بمسئولياته فللأمة أن تقومه ، والتقويم هنا ـ بلفظ أبى بكر ـ بغير حدود ، فقد يصل إلى العزل أى سحب الأمة تفويضها واسترداد حقها لتتصرف فيه كما تريد . .

أليست هذه أيها القوم هى الديمقراطية فى حكم الأمة ، أرسى قواعدها الله سبحانه وطبقها رسوله ، ثم نسيناها ومضينا الآن نتعلمها من غيرنا ؟ .

* * *

والمادة الثامنة تقول : ولا يقتل مؤمن مؤمناً فى كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن . وهذا تأييد لوحدة الأمة ومسئولية المؤمن حيالها ، فهذه أمة المؤمنين الذين يؤمنون بالله ورسله وكتبه ، والكفار هم أعداؤها ممن لا يؤمنون بالله وكتبه ورسله ، والإيمان بالله سبحانه وبرسوله وبقية رسله وكتابه وبقية كتبه هو أساس الوجود الإنسانى كله ، فكيف يجوز مع هذا أن يقتل المؤمن أخاه المؤمن فى كافر عدو لله والإنسانية ؟ وكيف يجوز له أن ينصر كافراً أى عدواً لله والإنسانية على مؤمن ؟ .

وإلى الذين يشكون فى أصالة هذه الصحيفة أقول : إن الواقدى أتانا فى مغازيه بنص خطبة رسول الله ﷺ بعد فتح مكة ، فردد فى خطبته نفس المادة الثامنة من الصحيفة ، قال : ولا يقتل مسلم بكافر .

* * *

والمادة التاسعة تقول : وأن ذمة الله واحدة ، يجير عليهم أدناهم . والذ هى الأمان ، وذمة الله هى أمان الله ، والمراد أن أى عضو من أعضاء الأمة مهما

صغر . . له الحق فى أن يجير أى يمنح الأمان لأى إنسان (بشرط ألا يكون محدثاً أو مقترفاً جناية) حتى الكافر تجوز إجازته وإضفاء الأمان عليه لعل ذلك يكون أدعى لإسلامه .

وقد أيد الرسول صلوات الله عليه هذا المبدأ ، واستند إلى نفس نص هذه المادة التاسعة من الصحيفة عندما أسر أبو العاصى بن الربيع زوج السيد زينب بنت الرسول فى موقعة بدر ، فلما علمت بذلك زينب بعثت فى فداء زوجها الذى فرق الكفر بينها وبينه ، وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبى العاصى حين بنى عليها ، فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة وقال : إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا . وأخذ الرسول عليه عهداً أن يخلى سبيل زينب وكانت لا تزال بمكة ، فأخلى أبو العاصى سبيلها ، ولحقت بأبيها فى المدينة ، وبعد ذلك بقليل خرج أبو العاصى فى تجارة له فأسره الناس وأتوا به وبماله إلى المدينة ، وتحايل أبو العاصى حتى وصل بيت زينب فاستجار بها فأجارته (وكان لا يزال كافراً) .

فلما خرج رسول الله لصلاة الصبح من اليوم التالى ، وكبر وكبر الناس ، خرجت زينب من صفة النساء وقالت : أيها الناس ، إنى قد أجرت أبا العاصى ابن الربيع . فلما سلم رسول الله ﷺ من الصلاة أقبل على الناس فقال : أيها الناس هل سمعتم ماسمعت ؟ فقالوا نعم ، قال : أما والذى نفس محمد بيده ، ماعلمت بشىء حتى سمعت ماسمعتم ، إنه يجير على المسلمين أدناهم ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى ابنته وقال : أى بنية ، أكرمى مثواه ولا يخلص إليك فإنك لا تحلين له . . ثم لم يلبث أبو العاصى أن أسلم وعاد إلى زوجته . .

فهنا نرى أن رسول الله يستشهد بنص مادة كاملة من الصحيفة ، وفى الخطبة التى ألقاها رسول الله بعد فتح مكة نقرأ عند الواقدى : « والمسلم أخو المسلم ، والمسلمون إخوة ، يد واحدة على من سواهم ، تتكافأ دماؤهم ، يرد

عليهم أقصاهم ، ويعقد عليهم أدناهم ، ومشدهم (قويهم) على مضعفهم (قويهم) ومسيرتهم على قاعدهم » .

وهنا يردد الرسول نص المادة بعبارته ولفظه هو وهما أبلغ معنى ومبنى . .

والمادة العاشرة تقول :«وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس » . والولاء تحالف الرجل مع الرجل على النصرة والمعاونة ، فأنت مولاه وهو مولاك والوليان متساويان ، وفى الحديث : « الولاء لحمة كلحمة النسب » (بضم اللام) فالولى قريب الولى ، والمعنى المراد أن المسلمين أقارب ، وهم أسرة واحدة من دون الناس ، وليس أبلغ من هذا فى توكيد رابطة أخوة الأمة ووحدتها عقيدة ودماً . . .

وتؤيد نص هذه المادة ومعناها آية كريمة هى الثانية والسبعون من سورة الأنفال . . حيث نقرأ : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُواْ أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** ﴾ .

والمادة الحادية العشرة تقول : « إنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم » ..

وهذه المادة تعطى بعداً سياسياً وإنسانياً للأمة وصحيفتها ، فهى سلم لمن يسالمها وحرب لمن يعاديها ، فإذا تبع يهود المدينة أمة الإسلام وسالموها ودخلوا فى حلفها ، فإن الأمة تنصرهم وتساوى بينهم وبين المسلمين فى الوضع السياسى ، وتعاملهم معاملة المسلمين ولا تجور أو تعتدى عليهم ولا تناصر عدواً لهم عليهم . .

ومعنى هذا أن هذه المادة كتبت بعد مناقشات وأخذ ورد مع اليهود ، فقد بدأ الرسول يدعوهم إلى الإسلام فأبوا إلا قليلاً منهم ، ولكنهم عرضوا أن يدخلوا فى حلف الأمة وولائها ، فتشاور الرسول مع أصحابه فى ذلك ثم مع اليهود ، فشرط لهم واشترط عليهم ، وانتهى الأمر إلى نص هذه الموادعة ، وكان رجاء الرسول عظيمًا فى أن تكون هذه الموادعة سبيلاً إلى إسلامهم كما حدث مع غيرهم كثيرين .

ونص هذه المادة يدل على أن هذا القسم الأول من الصحيفة قد كتب قِبَلَ موقعه ، وسنرى أن الأمر سيتغير بعدها . . .

والمادة الثانية عشرة تقول :«وإن سِلْمَ المؤمين واحد ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم» ..

ونحن هنا أمام نص سياسى صرف ، فما دامت الأمة واحدة فإن سلمها واحد ، ولا يحل لمؤمن أن يسالم عدواً أثناء قتال فى سبيل الله إلا على اتفاق وتشاور وتراض بين المسلمين فى ذلك .

ويؤكد هذا المعنى قول الله سبحانه وتعالى فى سورة البقرة (الآيتين ٢٠٨ ، ٢٠٩) وقد أنزلت هاتان الآيتان قبل بدر :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذينَ آمَنُواْ ادخُلُواْ فِى السلم كَآفَّةً وَلَا تَتَبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيطَانِ إنَّه لكُم عَدُوٌ مُبينٌ . فَإن زَلَلتُم من بَعد مَاجَآءَتكُمُ البينَاتُ فَاعلَمُواْ أنَّ الله عَزِيزٌ حَكيمٌ ﴾ .

وقد ذكرنا أن هاتين الآيتين أنزلتا قبل بدر ، وكان الكثير من القبائل قد سالم المسلمين نتيجة للغزوات والسرايا الأولى التى سبقت بدراً ، فكان بعض المسلمين يخطىء فيغير على بعض من سالم الأمة من جيرانها ، فكان نزول هاتين

الآيتين مؤيداً لمعنى ماق الصحيفة ، ومحذراً المسلمين من التمادى فى ذلك الخطأ والاستمرار فى المغازاة فى غير سبيل الله .

ويؤيد هذا المعنى قول الله سبحانه فى سورة الأنفال ، وقد نزلت بعد بدر وقبل أحد ، وكان الموقف بين أمة المدينة وخصومها خطراً مثقلاً باحتمالات الحرب ، ولكن كثيراً من القبائل كانت تدخل فى الإسلام أو تسالم أمة الإسلام ، وفى هذه المعاني تقول الآيات من ٦٠ إلى ٦٢ من سورة الأنفال أيضاً وهى الثامنة من سور القرآن : ﴿ **وَأعِدُّواْ لَهُم مَّااستَطَعتُم من قُوَة وَمن رِبَاط الخَيل تُرهبونَ بِه عَدُوَّ الله وَعَدُوَكُم وءَاخرِينَ من دُونهم لاَ تَعلَمُونَهُمُ الله يَعلَمُهُم وَمَاتُنفقُواْ من شَيء فِى سَبيل الله يُوَفَّ إلَيكم وأنتم لاَ تُظلَمُونَ ، وَإن جَنَحُواْ للسلم فَاجنَح لَهَا وَتَوكل عَلَى الله إنَّهُ هُوَ السَميعُ العَليمُ وَإن يُريدُواْ أن يَخدعُوكَ فَإن حَسبَكَ الله هُوَ الذي أيَدَكَ بِنَصره وَبالمؤمنينَ** ﴾ .

وهذه الآيات واضحة بينة فيما يتصل بالسلم مع الأعداء للأمة دائماً أن تعد نفسها للقتال وتتسلح له أبدا لترهب العدو ، وهناك من الاعداء ناس لا يعرف المسلمون علام انطوت قلوبهم فليتركوا على حالهم ، لأن الله وحده يعلم مافى نفوسهم ، وجنحوا للسلم فليستجب المسلمون لدعوتهم للسلم ، وإن جنوحهم للسلم خداعاً للمسلمين فلا بأس على المسلمين من ذلك ، لأن الله حسبهم وهو ناصرهم بإذنه كما أيدهم بنصره فى بدر .

* * *

والمادتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة على أعظم جانب من الأهمية بالنسبة لطبيعة الجهاد المستمر التى ينبغى أن تميز الإسلام ، فإن من أكبر وظائف أمة الإسلام أن تستمر فى جهادها بالحكمة والموعظة الحسنة حيناً وبالحرب حيناً،

حتى يصير الدين كله لله ، أو حتى يدخل أهل الأرض جميعاً فى الإسلام ، ولهذا فإن الجهاد ينبغى أن يكون عملية مستمرة لا توقف فيها ، والمسلمون جميعاً ينبغى أن يشتركوا فى هذا العمل ، فمن لا يقاتل يستطيع أن يعين بماله ، والأمة كلها مطالبة بأن تعوض من يضحى بدمه فى سبيل الله ، وفى ذلك تقول الصحيفة :

« وإن كل غازية معنا يعقب بعضها بعضاً » . . أى أن كل غزوة أو سرية ينبغى أن تتبعها غزوة ، فتتعاقب الغزوات والسرايا ويستمر الجهاد ، وإن المؤمنين يبىء بعضهم على بعض « أى يعوض بعضهم بعضاً » بما نال دماءهم فى سبيل الله . . لأن أمة الإسلام ينبغى أن تكون كلها فى المعركة . . من يقاتل يقاتل ، ومن لا يقاتل يعوض غيره عما يصيبه ، والقتال هنا يعنى الجهاد أى العمل المستمر فى سبيل نشر الدعوة الإسلامية .

* * *

والمادة الخامسة عشرة هى خير ختام لهذا القسم المدون من الصحيفة إنها تعطى القاعدة الخلقية والإنسانية التى ينبغى أن تكون أساس الحياة والعمل فى أمة الإسلام ، وسنلاحظ أن كل قسم من أقسام هذه الصحيفة ينتهى بمادة خلقية من هذا الطراز لأن أمة الإسلام أمة أخلاق سامية . . أمة مكارم أخلاق مستمدة من الهدى الإلهى :


« وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه » . . أى أن أمة الإسلام ينبغى أن تكون دائما على أحسن مايكون من هدى القرآن ، ونلاحظ هنا أن هذه المادة تردد روحاً ولفظاً معنى قرآنى هو الوارد فى الآية التاسعة من سورة الإسراء وهى السابعة عشرة من سور القرآن :

﴿ إنَّ هَذَا القُرءَانَ يَهدى للَّتي هىَ أقوم وَيُبشر المؤمنينَ الذينَ يَعمَلونَ الصَّالِحَاتِ أنَّ لَهَمُ أجْراً كَبيراً ﴾ .

لهذا ينبغى أن يكون المؤمنون المتقون على أحسن هدى وأقومه ، فلا يكفى أن يكونوا على هدى بل لابد أن يكونوا على أحسن الهدى وأقومه ، لأن القرآن يهدى للتى هى أقوم ، فإذا لم يكن المسلمون على هذا المستوى فهم لن يحققوا مايطلب منهم .

أليست هذه خير أمة أخرجت للناس ؟ . . أليست هذه هى الأمة التى ينبغى أن تكون خير أمة أخرجت للناس ؟ إذن فلابد أن تكون على أحسن الهدى وأقومه ، لا ضعف ولا تردد ولا ريبة ولا تقاعس . . إنها إيمان ثابت وهدى حسن سليم صحيح ، بل أحسن مايكون من الهدى وأكثره استقامة . . وكيف لا تكون هذه الأمة على أحسن هدى وأقومه ومعها كتاب الله وفيها رسوله ؟ . .

﴿ وَكَيفَ تَكفُرونَ وَانتُم تُتلَى عَلَيكُم ءايَاتُ الله وَفِيكُم رَسُولُهُ ﴾ .
(آل عمران الآية ١٠١) .



إنها أمة الضمير إنها أمة الإسلام

« وإن البر دون الإثم ، لا يكسب كاسب إلا على نفسه ، وإن الله على أصدق مافى هذه الصحيفة وأبره ، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم وإنه من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وإثم .

وإن الله جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله » .

فى هذا القول الأخير من هذه الدراسة سأجمع على إيجاز ماكان ينبغى أن يقال فى أربعة فصول أو خمسة ، لأن الصحيفة أو الكتاب الذى نحن بصدده جدير منا بأكثر من هذه العناية التى أوليناه إياها ، لأنه أثر بالغ الأهمية بالنسبة لبناء أمة الإسلام ، وقد رأينا أن بنود الصحيفة تتطابق مع نصوص آيات قرآنية وأحاديث نبوية ، ثم هى تنطبق بعد ذلك على الأخلاقيات الإسلامية وتوضح لنا بالتطبيق العملى ماذا يراد بالأخلاقيات الجماعية أو أخلاقيات الأمة ، فهى القواعد الأخلاقية التى يفرضها على الإنسان وجوده فى جماعة أو كونه عضواً فى أمة ، وهى تختلف فى كثير عن الأخلاقيات الفردية ، فأنت مثلاً كفرد تعتبر نفسك مسئولاً عن نفسك وأهلك ، وأنك إذا قمت بما عليك نحو نفسك وأهلك الأقربين فقد أنجيت نفسك وسلمت واستحققت رضا الله سبحانه وتعالى وثوابه ، وماهكذا الأخلاقيات الجماعية فهى تقول لك إنك لا تنجو وحدك قط ، لأنك عضو من جسد واحد هو الأمة ، فإما أن تنجو الأمة كلها وإما لا نجاة لك

ألم تسمع قول رسول الله ﷺ : « المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً » ؟ فكيف تكون حجراً فى بناء ثم تنجو بنفسك والبنيان كله ينهدم ؟ .

ألم تسمع قول الرسول : « مثل المؤمنين فى توادهم وتعاضدهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له بقية الأعضاء بالسهر والحمى » ؟ ، فكيف ترجو وأنت عضو فى هذا الجسد أن تنجو والجسد كله أو بعضه عليل محموم ، ثم - وقبل هذا كله - ألا تذكر قول الله تعالى : ﴿ **من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً** ﴾ . (المائدة : ٣٢) ، وهذا هو الدرس الأكبر الذى نسى أن يعلمنا إياه السابقون ، وهذه الصحيفة تؤكده وسترى فى هذا المقال مصاديق أخرى لذلك المعنى ، ولا نجد هذا المعنى قط فى كتاب من كتب السياسة التى تدخل ضمن مايسمى بالفكر السياسى عند المسلمين ، إنما الذى نجده فيها كلها أننا - الأمة كلها رعية أى ماشية وغنم ، وأن علينا كلنا أن نرضى بمن وُلِّىَ علينا ولو كان فاسقاً قاتلاً ، وكل مانستطيع حياله هو أن نجثو على ركبنا أمامه ونقول : سألناك بالله يامولانا وراعينا إلا عدلت فينا عطفاً منك ورحمة والله سبحانه يجزيك عنا أحسن الجزاء .

واستمع هنا إلى قول الإمام الغزالى - وهل بعد الغزالى إمام أو فقيه ؟ :

« وأما المقدمة الثانية ، وهى أن الدنيا والأمن على الأنفس والأموال لا ينتظم إلا بسلطان مطاع فتشهد له مشاهدة أوقات الفتن بموت السلاطين والأئمة ، وإن ذلك لو دام لم يتدارك بنصب سلطان آخر مطاع دام الهرج وعم السيف وشمل القحط . وهلكت المواشى وبطلت الصناعات ، وكان كل من غلب سلب . ولم يتفرغ أحد للعبادة والعلم مادام حياً ، والأكثرون يهلكون تحت ظلال السيوف ، ولهذا قيل : الدين

والسلطان توأم ، ولهذا قيل : الدين أسٌّ والسلطان حارس ، ومالا أس له فمهدوم ومالا حارس له فضائع » .

وهذا جانب من كلام أبى حامد الغزالى فى كتاب « الاقتصاد فى الاعتقاد » . .

وتسأله : والأمة ياأبا حامد أين تكون ؟ ولن تجد الجواب هنا ، بل تجده فى القرآن الكريم وفى الصحيفة وفى الثابت من الحديث والأثر ، والأثر هو الحديث الشريف ، ومن بينه وفى أوله ذلك الكتاب الذى ندرسه اليوم .

وقد رأينا براهين من ذلك فيما عرضنا من الصحيفة وهو قسمها الأول ، فللنظر إلى قسمها الثانى ، ويستنتج من مواده أنه كتب بعد القسم الأول ، بقليل ، بعد معركة يوم بدر التى ثبتت أقدام الأمة وأعلت مكانتها ، ومن الممكن أن يكون ذلك القسم قد كتب قبيل « أحد » أو بعدها بقليل ومعركة أحد كانت فى ٧ شوال سنة ٣ هـ / ٢٣ مارس ٦٢٤ م .

وقد رقمنا مواد القسم الأول من ١ إلى ١٥ ونبدأ الأن بالمادة رقم ١٦ ـ « وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن » .

وهذه المادة تدل على أنه كان فى المدينة إلى ذلك الحين مشركون من العرب ، تركوا على حالهم حتى يقتنعوا بالإسلام ويسلموا ويؤمنوا ، ولكنهم كانوا حلفاء الأمة داخلين فى عقدها وعهدها ، وقد قلنا فى حديثنا السابق إنه كان من هؤلاء مجموعة أوس مناة التى أسلمت بعد الخندق وسميت بعد ذلك بأوس الله ، وقد يكون هناك غيرهم ، وكان رئيس أوس مناة هؤلاء أبا قبس صيفى بن الأسلت وكان شاعراً مشهوداً له بالتجويد ، وقد ذكره الأصفهانى فى الأغانى .

والأمـة هنا تحرم على هـؤلاء أن يجيروا لقريش نفسـاً أو مالاً والمراد بـالنفس رجل قرشى أو امرأة قرشية أو مولى أو عبد لأحد من قريش . وإذا كان لمؤمن حق عند ذلك القرشى أو مواليه أو ماله فلا جور لأحد .

فى كتاب الأمـوال لأبى عبيد القـاسم بن سلام : « وأنـه لا يجير مشرك مالاً لقرشى ولا يعينها على مؤمن » .

وأبـو عبيد القاسـم بن سلام من أعـاظم رجال الحديث ، وقد روى نصها كلمـة كلمـة بسـند يحيى بن عبـد الله بن بكير وعبـد الله بن صـالح قـالا : حـدثنا الليـث بن سـعـد قال : حـدثنى عقيل بن خـالد عـن ابن شـهاب (الزهـرى) وكل هـؤلاء مـن أئمة رجـال الحـديث الأول ، وكـذلك كـل رجال سنده كما رأينا .

إن هذه الصحيفة غير موثقة ولا مؤيدة من رجال الحديث . فها هى ذى موثقة مؤيدة من أهل الحديث بل من القرآن الكريم نفسه ، وقد ذكرنا فى مقالنا الماضى أن رسول الله ﷺ استند إلى مادة منها فى إجازة ابنته زينب رضى الله عنها لزوجهـا أبى العـاص بن الربيع ، وكان الإسلام قد حال بينها وبينه ، وكرر الرسول بعض موادها فى خطابه لأهل مكة عندما دخلها بعد الفتح .

والمادتان ١٧ و ١٨ مرتبطتان إحداهما بالأخرى ، ولهذا نوردهما معا .

١٧ ـ « وأنه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قود به ، إلا أن يرضى ولى المقتول » .

١٨ ـ « وأن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه وفى قتل المؤمن للمؤمن عمداً الاعتباط عن بينة » يقول سبحانه وتعالى فى سورة النساء آية ٩٣ : **﴿ وَمَن يَقتل مُؤمناً مُتَعَمداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا ، وَغَضبَ الله عَلَيه وَلَعَنَهُ وَأعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ﴾** .

وعن عقاب القاتل فى هذه الدنيا ﴿ **وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن** ﴾ . (المائدة ٤٥) . هذا فى شريعة بنى إسرائيل وتجىء شريعة الإسلام فتوجد إلى جانب القتل مخرجاً آخر قد يكون أجدى على ولى الدم من الثأر وهو أخذ الدية .

والصحيفة هنا تقول : إن من قتل مؤمناً عمداً فإنه يقتل به (**فإنه قود به**) إلا أن يرضى ولى المقتول ، فقد يرى ولى المقتول أنه لا يفيد شيئاً من قتل القاتل إلا شفاء الغليل والأخذ بالثأر ، والثأر يجلب الثأر إلى مالا نهاية فيرى ولى الدم أن يأخذ الدية وخاصة إذا كان فقيراً أو امرأة ذات أولاد لا عائل لها .

والصحيفة تعطى حق الثأر للأمة ، ولا تجعل لأحد من الأمة الحق فى التساهل فى ذلك الحق إذا تمسك ولى الدم بثأره وفى هذه الحالة تقول : ولا يحل لهم إلا قيام عليه .

أى أن قتل قاتل المؤمن فرض على الأمة إذا تمسك المولى بثأره .

فيجىء ابن كثير فى تفسيره ويقول : ليس لمؤمن أن يقتل أخاه المؤمن بوجه من الوجوه ، كما ثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « **لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزانى ، والتارك لدينه المفارق للجماعة** » ...

ثم يقول : ثم إذا وقع شىء من هذه الثلاث فليس لأحد من آحاد الرعية أن يقتله إنما ذلك إلى الإمام أو نائبه . . (٢ ص ٣٢٩) .

وتعليقاً على هذا نقول : إن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان كان خليفة فهو إمام الجماعة ، ولكنه هو الذى أمر بقتل الحسين بن على رضى الله تعالى عنه ، من الذى يأخذ بثأر الحسين وآله ؟ وأبوه معاوية بن أبى سفيان كان خليفة إماماً

ولكنـه أمر بقتل حجر بن عدى وأصحابه ظلمًا وعدوانًا فمن ولى دم حجر بن عدى ؟ الجواب : الأمة .

وأكثر من ذلـك : ألا تقول الآية الكريمة ﴿ **ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً** ﴾ ؟

فاسمـع قول ابن كثير فى ذلـك والـذى عليه الجمهـور من سلف الأمة وخلفها : أن القاتل له توبة فيما بينه وبين ربه عز وجل ، فإن تاب وأناب وخشع وخضـع وعمـل عمـلاً صالحاً بدل الله سيئاته حسنات ، وعوض المقتول عن ظلامته وأرضاه عن ظالميه . . » (٢/ ٢٣٤) .

سبحان الله . يقول الله سبحانه ﴿ **فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وَ أَعَدَّ له عذاباً عظيماً** ﴾ .

ويجىء ابن كثير ويقول : والذى عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها أن القاتل له توبة .

والجمهـور فى مصـطلح أهـل الفقـه ليس جمهور الأمة بل جمهور العلماء والفقهـاء . أليس أصـوب وأقرب إلى العدل من كلام ابن كثير وأصحابه من الجمهور من سلف الأمة وخلفها قول الصحيفة (وإن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه) ؟ .

لأن الخيار بين القود والدية حق لولى الدم .

فإذا تمسك الولى بحقه فى الثأر كان على الأمة كلها أن تقوم عليه « ولا يحل لهم إلا قيام عليه » .

وأما حق الله سبحانه وتعالى على القاتل فقد بينه فى الآية التى ذكرناها .

فمن الذى أدخل الفقهاء فى حق الله سبحانه وتعالى ؟ .

الذى أدخلهم هو أنهم كما قلنا جزء من التركيبة السياسية الاجتماعية فى وقتها أى الاستابلشنت ، سواء أكانت التركيبة أموية أو عباسية أو مملوكية ، فهذه الرخص قد وجدت لتبرير جرائم الأمراء .

لقد قال أحمد بن حنبل فى قوله تعالى (فجزاؤه جهنم خالداً فيها . .) الآية « لقد نزلت فى آخر مانزل ، مانسخها شىء حتى قبض رسول الله ﷺ قال : أرايت إن تاب وعمل صالحاً ثم اهتدى ؟ قال : وأنى له بالتوبة وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**ثكلته أمه رجل قتل رجلاً متعمداً يجىء يوم القيامة آخذا قاتله بيمينه أو بيساره وآخذاً رأسه بيمينه أو بشماله ـ تشخب أوداجـه دمـاً فى قبل العرش يقول : يارب ، سل عبدك فيم قتلنى ؟** » . . (مسند أحمد ١/ ٢٤٠) . .

ثم يذهب ابن كثير فى خبر طويل إلى أن من قتل مائة نفس له توبة . (٢/ ٣٣٥) .

فهذا كلام الله سبحانه .

وهذا كلام رسوله ﷺ .

وهذا كلام الفقيه .

ألا ترى معى أن نص الصحيفة أقرب إلى روح الإسلام : إذا رضى أهل المقتول بالدية كان بها ، وإلا فإن الأمة كلها تقوم على القاتل (ولا يحل لهم إلا قيام عليه) حتى يتم القصاص ويستوفى المواطن فى أمة الإسلام حقه . أما حق الله سبحانه فلا دخل لمخلوق فيه والله سبحانه يستوفيه كما جاء فى القرآن الكريم .

وليس من حق أى إنسان ـ فقيهاً كان أو غير فقيه أن يتبرع من تلقاء نفسه ويدخل بين الله سبحانه وحقه ويقول إن الله يتوب على القاتل ولو كان ضحاياه مائة من النفوس .

فهذا تقرب إلى الحكام على حساب الله تعالى ، وذلك أمر لا يجيزه أحد .

وهل معنى ذلك أننا نلوم الفقهاء الذين قالوا هذا الكلام ؟

الجواب : نعم ولكن ليس على الإطلاق .

فإن فقهاء عصور الظلم من الأمويين فصاعداً ربما قام لهم عذر لأنهم كانوا يعيشون مع ظلمة طغاة يستحلون الدماء ولو أحسوا خوفاً من ناحية أى انسان فقيه أو غير فقيه ـ فتلك هى نهاية ذلك الإنسان .

ولكننا إذا عذرناهم على السكوت عن الظلم فما عذرهم فى التبرع بتجويز التوبة لمن يقتل الواحد والاثنين إلى المائة .

لقد فعلوا ذلك طلباً للوظائف والجاه .

وهذا مالا يغتفره مسلم ذو ضمير ينظر إلى صالح هذه الأمة .

ولابد من أن نضيف أنه كان هناك دائمًا فقهاء من أهل الحق والالتزام والزهد فى خيرات الدنيا فى سبيل الله .

واللوم الأكبر يقع على فقهاء القرنين الهجريين الأولين ، أولئك الذين تسلموا الأمانة ووضعوا أسس الفقه وقواعد السلوك للفقهاء . فلو أن هؤلاء وقفوا فى وجه الظلم وتشددوا وعرضوا أنفسهم للقتل لردوا أهل الطغيان عن الطغيان . وماذا كان يحدث لو قتل منهم مائة أو مائتان كما قتل الكثيرون ممن وقفوا فى وجه الأمويين والعباسيين ؟

وهل من المقبول أن تجرى مذبحة كربلاء فى العاشر من المحرم سنة ٦١ هـ/ ١٠ أكتوبر ٦٧٠ م ويموت فيها فوق السبعين رجلاً وامرأة وطفلاً معظمهم من آل البيت دون أن يجتمع نفر من أهل العلم ويحتجوا على ذلك الجرم الشنيع . وقد ذكرت كربلاء لأنها مشهورة معروفة للناس أجمعين ..

ولكن لابد أنه كانت هناك جرائم أخرى لم يحتج عليها أهل العلم فى ذلك الزمان فاستمرأ الحكام المرعى ومشى الظلم فى أمة الإسلام التى قامت لتوقف الظلم فى تاريخ البشر .

كان لابد من هذا الاستطراد لأن هذه دراسة فى بناء أمة الإسلام ومن واجبنا أن نقول من أين طرأ الفساد على أمة قامت لتوقف الفساد . .

ونعود إلى وثيقتنا . . . .

والمادتان ١٩ و ٢٠ تؤكدان المسئولية الجماعية للأمة الإسلامية عن سلامتها الداخلية ، أى عن الحفاظ على الحق والقانون وكرامة الإنسان داخل الأمة ، وجدير بالملاحظة أن المسئولية عن أمة الإسلام وشئونها جماعية ، وهذه المسئولية تجعل القرآن الكريم والسنة النبوية ، ومنها هذه الصحيفة تجعل للأمة شخصية وقوة معنوية دون أن تجرد المواطن فى الأمة من مسئوليته الفردية ، داخل حدود الجماعة ، وذلك كان مصدر القوة الكبرى لأمة الإسلام ، فإنه جعلها ضميراً حياً

ـ متحركاً ، ثم جاء المستبدون والطغاة فجردوا الأمة من هذه المسئولية وزعموا أنهم أولياء الأمور وأصحاب المسئولية فكانت هذه بداية التدهور الخطير . .

١٩ ـ « وأنه لا يحل لمؤمن أقر بها فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولا يؤويه » .

٢٠ ـ « وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل » . والمحدث هو الذى يقترف جناية فى حق فرد من أفراد الأمة أو فى حق الأمة كلها . . فهنا نجد الصحيفة تحرم على كل عضو من أعضاء الأمة مقر بها فى هذه الصحيفة أو العهد أو الميثاق أن ينصر المجرم أو يؤويه لابد أن يسلمه للأمة لتأخذ بحقها منه وهذه مسئولية فردية مفروضة على كل مسلم ، وهى مسألة ضمير أولاً ثم مسألة حق من حقوق الله على رجال الأمة واحداً واحداً .

فالله سبحـانه يلعنه ويغضب عليه يوم القيامة ، وأما الأمة فلا تأخذ منه صرفاً ولا عدلاً أى تقاطعه فلا تعامله (صرف) ولا تقبل منه شهادة (عدل) .

ولم يكن صواباً من المشرعين وأولى الرأى أن يعفوا الأمة من هذا الواجب وتلك المسئولية وينقلوها إلى من يسمـونه الإمام ، لأن ذلك أخرج الأمة من المسئولية السياسية والمعنوية عن مصيرها بينما ينص القرآن والسنة على أن مسئولية المؤمنين عن أمتهم مسئولية فردية وجماعية . . .

والمادة العشرون تقول : « إنه مهما اختلفتم فيه من شىء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ وهذه المادة مؤيدة حرفياً تقريباً بنص الآية ١٠ من سورة الشورى :

﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ .

وتلى ذلك مجموعة من المواد (٢١ ـ ٢٣) كلها خاصة باليهود وعلاقتهم بأمة المدينة ، ويمكن اعتبار هذه المواد جزءاً من الصحيفة ، ويمكن كذلك اعتبارها معاهدة خاصة باليهود ألحقت بها وفى كلتا الحالتين فهى بصفتها جزءاً من الكتاب أو الصحيفة أو الدستور تعطينا مثالاً مما يمكن أن تكون عليه علاقة الأمة بجماعة أخرى تخالفها فى الدين . إما مشتركة معها فى نفس الوطن وإما مجاورة لها يتوقف على صداقتها مع الأمة أو ولائها أمان الأمة نفسها . .

وواضح أن أمة المدينة لم تجد مايدعو إلى إرغام اليهود على الدخول فى الإسلام ، فلا إكراه فى الدين مادام الرشد قد تبين من الغى ، فالأمر فى دخول الناس فى الإسلام مرهون بالهدى الذى يرزقه الله لمن يشاء ، ومادام الأمر كذلك فليعيشوا مع المسلمين إذا كانوا من أهل المدينة المقيمين فيها قبل الإسلام ، فإن الإسلام لا يرضى أن يخرج إنسان من بلده بسبب مخالفته للأمة فى الدين إذا كان مخلصاً صادقاً بينه وبين المسلمين حلف أو عهد أو ميثاق ، بل له أن يشترك مع المؤمنين فى الدفاع عن الأمة ووطنها على أن ينفق من ماله فى الدفاع مع المؤمنين . . .

هذا موضوع هذا القسم من الصحيفة الذى يتكون من ست مواد واحدة منها تتكون من سبعة بنود . ونظن أن هذا القسم من الصحيفة كتب بعد « أحد » مباشرة أى بعد ٧ شوال سنة ٣ هـ/٢٣ مارس ٦٢٤ م فقد تعرضت المدينة وأمنها خلال هذه المعركة لمحنة كبرى نجت منها بفضل الرسول ﷺ وثباته وبُعد نظره ، وكان لابد بعد أن كتب الله للأمة النصر أن يتحدد الموقف مع من فى وطنها من اليهود ، فإن رسول الله كان قد عقد معهم بعد أن استقر فى المدينة وقامت الأمة عهداً على النصر والأسوة ، وقد جاء ذكر ذلك العهد فى فاتحة الصحيفة ، وقد رأينا أن بعض المؤرخين يقولون : « إنه شرط لهم واشترط

عليهم » ، ولكن اليهود بدأ عليهم القلق بعد بدر ، فقد ارتفع شأن الأمة وعز الإسلام وتدافع الناس يدخلون فيه ، فأحس اليهود بالخوف من ذلك الدين الذى يعلو أمره وأمر أمته يوما بعد يوم ، بل بلغ الهلع برجل منهم يسمى كعب الأشرف وكان يسكن وحده فى أطم له فى العوالى ، أى فى التلال الواقعة جنوب شرقى المدينة على مقربة من منازل اليهود بلغ من غيظه أن انتابه مايشبه الحمى ، فمضى يؤلب على الإسلام ورسوله ويقول شعراً سمجاً يهجو فيه محمداً ﷺ وذهب إلى مكة واجتمع بأهلها وحرضهم على المسلمين حتى ضاق به الرسول ، ولكنه لم يزد على أن تشكى منه بمثل قوله : « اللهم اكفنى ابن الأشرف بما شتت فى إعلانه الشر وقوله الأشعار » ، وقال رسول الله ﷺ : « من لى بابن الأشراف » ، فلم يكد رسول الله يقول ذلك حتى ندب بعض الأنصار نفسه لتخليص الإسلام من ذلك العدو المقروح وكان ابن الأشرف يهودياً من ناحية أبيه ، ولكنه كان قد تربى فى بنى حارثة بن الحارث من الأوس وكان أخاً فى الرضاعة لمحمد بن مسلمة وإلى نخلية بن جبير بن عتيك الصحابيين المعروفين ، فما كاد هذان يسمعان شكوى الرسول من كعب بن الأشرف حتى مضيا فى عدد قليل من أصحابهما فقتلوا كعب بن الأشرف فى قاع بيته وبين أهله . .

وقد روع هذا الحادث اليهود وأحسوا بقوة المسلمين الصاعدة ، ثم جاءت أحد وماتعرض له المسلمون فيها وتيقظت الأمة للخطر ، فكان هذا كله فيما نرى دافعاً إلى إضافة هذه المواد للكتاب أو الصحيفة بعد التشاور والتفاهم والتراضى على عادة الرسول فى كل شىء كان يعمله متصلاً بالأمة ومصالحها . يقول الواقدى فى حديث الخندق (٢/٤٥٤) : « وكان رسول الله حين قدم صالح قريظة والنضير ومن بالمدينة من اليهود ألا يكونوا معه ولا عليه ، ويقال صالحهم على أن ينصروه ممن دهمه منهم ويقيموا على معاقلهم الأولى بين الأوس والخزرج . . . » .

وإذا أخذنا فى حسابنا تلك العبارة الأخيرة من كلام الواقدى ، وقد وضعنا تحتها خطا استبانت لنا حقيقة هذا القسم من الصحيفة ، فإن اليهود لا يذكرون فيها باسم بنى النضير أو قريظة ، بل بأسماء حلفائهم من الأوس والخزرج ، والأغلب أن اليهود هم الذين طلبوا ذلك حتى يكون ذلك أضمن لسلامتهم وخاصة بعد تصفية أمر بنى قينقاع بعد بدر ، وسنرى مصداق ذلك فيما يلى من نصوص ذلك القسم :

٢١ ـ وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين .

٢٢ أ ـ وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته . .

٢٢ ب ـ وأن ليهود بنى النجار مثل ماليهود بنى عوف .

والمواد ٢٢ ج ، د ، هـ ، ز ـ تعطى هذه الضمانات ليهود بنى الحارث ويهود بنى ساعدة ويهود بنى جشم ويهود بنى الأوس (أوس مناة) ويهود بنى ثعلبة . . .

فاليهود هنا محسوبون على حلفائهم من الأوس والخزرج ومنسوبون إليهم زيادة فى أمنهم وضماناً للتوثق منهم وتوقياً لغدرهم .

٢٣ ـ ج إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته ، والظلم هو التعدى أو العدوان سواء أكان ذلك على النفس (بمخالفة القانون والعرف) أم على الغير ، أما الإثم فهو ارتكاب جريمة أو مقارفة عمل غير قانونى ، وجدير بالملاحظة أن أحداً لم يدرس المعانى الحقيقية لألفاظ مثل : وإثم وعدوان وفسق وفساد وما إليها فى معانيها التاريخية بعيداً عن معانيها اللغوية والدينية ، ولأن أصحاب المعاجم اللغوية وأصحاب الفقه تقليديون جداً فيما يذكرون من المعانى ، ولكننا نريد أن نفهم هنا معنى لفظ « فساد » اجتماعياً وتاريخياً فلا نجد ، والأمر محتاج إلى دراسات مطولة ، فإننا مادمنا نريد أن ندرس السيرة دراسة جديدة ، فلابد أن

تكون دراستنا على أسس جديدة ، فإن السيرة تدخل فى الفقه لأنها جزء كبير من السنة ، ولكنها تاريخ أيضاً وللتاريخ منطقه ومنهجه وطبيعته التى تضيف إلى دراسات السنة والفقه أبعاداً جديدة توسع آفاقها وتزيد فهمنا وتقديرنا لها ، وأشير هنا إلى كتاب قيم فى ذلك المعنى رجعت إليه فى كتابة السيرة المطولة التى تطبع الآن فى لندن ومؤلفه المانى أو هولندى . . .

M. K. Braumamn, The iritual Backgraund of Easrly Islam. Studies in Arab concofte. Laiden 1972

وهذه المادة ربما تكون صدى لمقتل كعب بن الأشرف ، فإن اليهود أرادوا أن يسلموا من مغبة أى خطأ يصدر عن واحد منهم دون أن تكون لقومه يد فيه ، فإن العقاب (بما فى ذلك القتل) يوقع ولا يحل إلا به وبأهل بيته الذين تستروا عليه وعانوه وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم .

٢٤ ـ وثعلبة ـ كما قد ذكرنا ـ كانت قبيلة قديمة من العرب دخلت فى اليهودية وأصبحت تحسب منهم إلى جانب بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة ولكنهم لم يظلوا على اليهودية عندما جاء الإسلام فدخلوا فى جملة المسلمين واندرجوا فى غمارهم ، وأصلهم من أزد الشام المعروفين ، وهم منحدرون من بنى جفنـة بن عمـرو بن مَزّيقياء جد الأوس والخزرج أيضاً ، وقد هاجروا إلى المدينة واستقروا فيها قبل الإسلام مع فرع صغير من جفنة وتهودوا ثم أسلموا ، وكان هذا القبيل الصغير من بنى جفنة فى المدينة موالياً لبنى ثعلبة وليس لدينا مايدل على أنهم كانوا يهودا أو يهودا أسلموا ويبدو أنهم طلبوا أن يدخلوا فى العهد فأجيبوا إلى ماطلبوا . .

٢٥ ـ وأن لبنى الشطِيبة مثل ماليهود بنى عوف .

وهؤلاء بنو الشطيبة (فى نص الوثيقة عند أبى عبيد القاسم بن سلام : شيطبة . ويسميهم الطبرى شيطبة ، ولكن الأصح ماذكرناه إعتماداً على

ماجاء فى وفاء الوفا للسمهودى (١/ ١٥٢) وابن حزم فى الجَمْهَرَة وهم فرع من بنى جفنة الغسانيين هاجروا إلى المدينة قبل الإسلام ونزلوا رانج ، فهم يحسبون فى جملة أهل رانج .

وقد ذكرنا هؤلاء جميعاً لتدل على تهافت جماعات أهل المدينة على الدخول فى عهد أمة الإسلام وعقدها ، وأراد رسول الله ﷺ أن يؤكد لهم ذلك فأثبت انضمامهم فى نص الصحيفة .

٢٦ ـ **والمادة الأخيرة** من ذلك القسم تؤكد لنا الأساس الأخلاقى الذى تقوم عليه الوثيقة كلها أو الدستور كله ونصها .

« وإن البر دون الإثم » .

أى أن البر مقدم على الإثم ، والمؤمن ينبغى أن يبر ولا يأثم ، والبر هو الوفاء وبررت بقسمى أى وفيت به ، ورجل بار أى وفى ولا معنى لأى قانون أو اتفاق أو عقد أو عهد إلا إذا قام على أساس أخلاقى هو البر أى الوفاء .

فلو أنك اتفقت أو عاهدت أو حلفت دون أن تبر بشىء من ذلك فلا قيمة لأى عهد أو عقد أو أيمان أو قانون ، لهذا تردد الصحيفة دائماً هذا الأساس الأخلاقى فى آخر كل فقرة من فقراتها ، وكأنها تريد أن تؤكد أنها وثيقة قلوب أو ضمائر أو أخلاق ، فإن كل عهود الدنيا لا معنى لها إذا لم تكن قائمة على أساس البر أى الوفاء . والضمير وهو القانون الأكبر الذى ينبغى أن يحكم كل تصرفات المؤمن الحق والمواطن الحق ودليل ذلك أن الجزء التالى من الصحيفة يتكون من ست مواد يقول فى المادة الأخيرة منه وهى المادة ٣٢ .

٣٢ ـ وإن الله على أَبَرّ هذا والقسم الذى يليه من الصحيفة ينتهى بالمادة التالية :

٤١ ـ وأن الله على أتقى مافى هذه الصحيفة وأبره .

ونريد أن نقف هنا عندما أسلفناه من الكلام فى هذه الصحيفة وما أردنا إلا أن نبين الأسس الأخلاقية الشورية التى قام عليها بناء أمة الإسلام ، فهى أمة الضمير أمة القلوب أمة الإيمان إنها أمة وليست دولة ، لأن الدولة تدول (دال يدول مضى وانتهى) أما الأمة فلا تدول ولا تزول .

إنها أمة المؤمنين يحكمها الضمير تحكمها القلوب وتسير أمورها أحكام القرآن والسنة ، وكلها أحكام قلوب وضمائر حية ولا يحكمها قانون وضعى ، لأن ذلك القانون الذى يضعه الناس يتغير ويتبدل ومن الخطأ أن يقال إن رسول الله ﷺ كان رجل دولة أو رجل سياسة أو أنه كان سياسياً أو دبلوماسياً أو قائداً عسكرياً ، فهذه كلها صفات دون رسول الله ﷺ ، فإن رجل الدولة يحتال ويدبر ويخفى الحقيقة إذا استدعى الأمر ذلك وحاشا لرسول الله أن يصدر عنه من هذا شىء ، ورسول الله ليس رجل سياسة لأن السياسة تبيح التظاهر والتخابث والغدر وما إلى ذلك وماأبعد رسول الله ﷺ من ذلك . . وأبعد من ذلك أن يوصف رسول الله بأنه دبلوماسى ، وكلنا نعرف مايمكن أن يدخل فى الدبلوماسية من احتيال وتظاهر وإخفاء للحقائق وكذب إذا اقتضت مصالح أمته ذلك ، أما القول بأن رسول الله كان قائداً عسكرياً فجرأة على رسول الله يأباها إجلالنا له وتوقيرنا إياه ، فإن القائد العسكرى وظيفته كسب النصر على الأعداء بأى سبيل ولو أدى الأمر إلى قتل الألوف من الأبرياء ، وقد أباد نابليون فى معركة أوسترليتز أهل قرية كانوا آمنين فى السهل فلما سئل فى ذلك قال : « أنا قائد عسكرى ولست واعظاً وأنا مكلف بأن أنصر رايات فرنسا بأى سبيل وقد نصرتها ، حقاً إن الاعتبارات الأخلاقية لها مكانها ولكن بعد النصر ، فانظروا كيف نعوض هؤلاء المساكين عما أصابهم أما أنا فقد أديت واجبى وكسرت العدو » .

وقد رفع الله سبحانه وتعالى عن رسوله كل مسئوليات السلبية للقيادة العسكرية والقتال حيث قال : ﴿ **فَلَم تَقتُلوهُم وَلَكِنَّ الله قَتَلَهُم وَمَارَمَيتَ إذ**

رَمَيتَ وَلَكِن الله رَمَى وَلِيبلِى المؤمِنِينَ مِنهُ بَلاَء حَسَناً إنَ الله سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ . (الأنفال ١٧) .

* * *

لم ينشىء محمد رسول الله ﷺ دولة ، ولكنه بنى أمة وبث فى هذه الأمة القرآن وفيها يتصل ببناء الأمة فإن القرآن إيقاظ للضمير الإنساني وإشعار له بقدره وبالقيمة الإنسانية للإنسان ، ضرب رسول الله بقوله وفعله المثل للأمة لتقتدى به ، وانتصرت أمة الإسلام على يديه أى أنه علم الأمة النصر وأعطاها أخلاقيات النصر من إيمان وتضحية وعزة نفس وترفع عن الدنايا وتمسك بالعدل والفضل والبر والخير وتضحية بالنفس فى سبيل الأمة والإسلام ، وسجل لها ذلك فى حديثه وفى صحيفته التى هى جزء من ذلك الحديث أو الأثر أو السنة . . .

وترك الأمة لتختار لنفسها الطريق لكى تسير نفسها فى طريق النصر والإيمان والعزة والكرامة والخير ، والأمة بعد ذلك حرة فى أن تصنع لنفسها الشكل الذى تحكم نفسها به ، فهى أساساً أمة حرة أو اتحاد شعوب حرة ، وكل فرد من أفراد هذه الشعوب انسان حر كريم له مثله الأعلى النابع من القرآن والحديث ، فكما أن أمة الإسلام تضمن لمواطنيها الحرية والكرامة والعزة وسلامة الضمير فإن رسول الله ﷺ رسم لأمته الطريق وتركها تسير فيه على النحو الذى تريد ، فهى إسلامية أولاً وشورية ثانياً وحرية وضمير حى أولاً وأخيراً .

والضمير الحى فى لغة الإسلام هو القلب اليقظ الواعى المؤمن المنتصر الظافر لأنه يقظ واع مؤمن بالله ورسوله .

ورسـولـه فى البـداية والنهاية إنسان نبى أو بشر رسول ، ولكنه يقود أمته بأسلوب جديد لا يشبـه فى شىء أسـاليب رؤسـاء الـدول أو قادة الجـماعات الأخرى ، لأن أمة الإسلام كان ينبغى أن تكون أمة الدنيا كلها . أمة الأمس واليوم والغد ، وينبغى أن تكون كذلك ولكنها شغلت نفسها بشكليات بناء الأمة مع أن المهم هو الروح ، روح الأمة وضميرها الحى وقلبها الواعى ، وبهذا القلب الواعى تختار من يسيرون أمورها بحرية وبوحى من ضميرها ، يستوى أن يكون خليفـة أو ملكاً أو سلطاناً أو أميراً أو رئيساً أو هيئة تحكم مَعاً فكل هذه سواء مادامت تسير فى هدى الإسلام وتسعى لتحقيق مثله العليا فى ضوء السراج المنير .

﴿ يأيها النبى إنا أرسلنك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً ﴾ . (الأحزاب : الآيتان ٤٥ ـ ٤٦) .

الفهـرس

رقم الإيــداع

٩٨ / ٨٢٩٢

I.S.B.N
977 - 01 - 5756 - 2

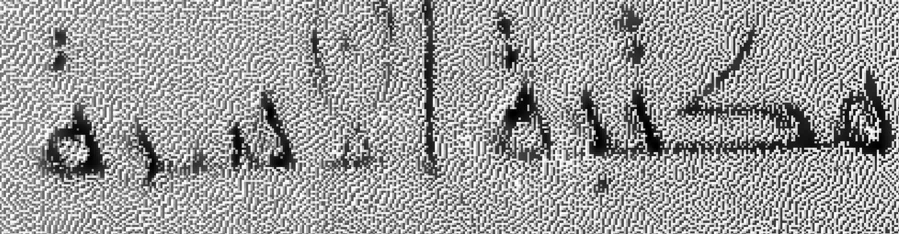
مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

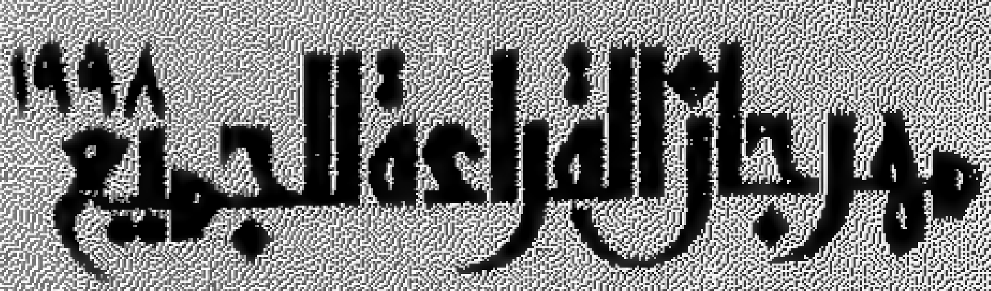


ومازال نهر العطاء يتدفق، تتفجر منه ينابيع المعرفة والحكمة من خلال إبداعات رواد النهضة الفكرية المصرية وتواصلهم جيلاً بعد جيل. ومازلنا نتشبث بنور المعرفة حقاً لكل إنسان ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

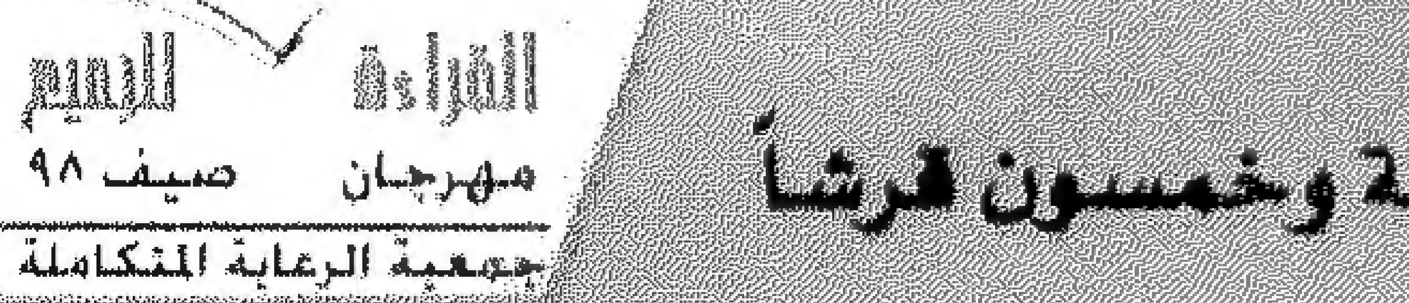
شبَّت التجربة المصرية «القراءة للجميع» عن الطوق ودخلت «مكتبة الأسرة» عامها الخامس يشع نورها ليضىء النفوس ويثرى الوجدان بكتاب فى متناول الجميع ويشهد العالم للتجربة المصرية بالتألق والجدية وتعتمدها هيئة اليونسكو تجربة رائدة تحتذى فى كل العالم الثالث، ومازلت أحلم بالمزيد من لآلىء الإبداع الفكرى والأدبى والعلمى تترسخ فى وجدان أهلى وعشيرتى أبناء وطنى مصر المحروسة، مصر الفن، مصر التاريخ، مصر العلم والفكر والحضارة.

سوزان مبارك





مائة وخمسون قرشاً



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب